فى
الصين
بقلم
عبد المنعم الصاوى
كتب للجميع
العدد
١٠١
م
١٠
ابريل ١٩٥٦

عبد المنعم الصاوى

.. فى الصين

تصدر عن
دار الجمهورية

إليك ...

إليك ... أنت :

يا رسول الله ...

يا من قلت :

"أطلبوا العلم .. ولو .. في الصين"

... أقدم هذا الكتاب

عبد المنعم الصاوي

مقــــدمة

. . . .
. . . .
. . . .
. . . .
. . . .
. . . .
. . . .
. . . .
. . . .
. . . .
. . . .
. . . .
. . . .
. . . .
. . . .
. . . .
. . . .
. . . .
. . . .
. . . .
. . . .

•••• وهكذا ترون ، أننى آثرت ألا يكون للكتاب مقدمة ، فمن الخير ، ألا تسبقه مقدمات •••

« عبد المنعم الصاوى »

- ١ -

كان طريقنا الى الصين ، هو أن نستقل الطائرة الى « بومباى » ، حيث نقضى بالمدينة الهندية ليلة ، نستريح فيها ، ونحصل من القنصلية الصينية بها على تأشيرة لدخول الصين ، ثم نستأنف الرحلة الى « كلكتا » ، ومنها الى « هونج كونج » ، عن طريق « بانكوك »

وكان معنى هذا ، أن نطير حوالى أربع وعشرين ساعة كاملة ، قبل أن نستقل القطار ، قاصدين الحدود الصينية ٠

٠٠٠ دعك من الطريق ، والسفر المضنى ، فأنا لا أكتب عن هذا ٠

٠٠٠ ودعك من قناصل مصر ، فى « بومباى » و « كلكتا » وكيف تركونا لقناصل الصين يتعقبوننا ، ويهتمون بأمورنا ، ويسهلون لنا الرحلة ، ويودعوننا فى المطارات ٠٠٠ فأنا لاأكتب عن هذا ٠٠٠

٠٠٠ ودعك من « بومباى » ، و « كلكتا » ، و « بانكوك » ، وما فى كل منها من جمال أو قبح ، وخير أو شر ، وفضيلة أو رذيلة ، فأنا لاأكتب عن هذا ٠٠

أنا أكتب عن الصين ٠٠٠

وقد كنت طيلة الطريق اليها ، أستعيد قراءاتى عنها ، وأجتر المعلومات ، التى سبق أن اختزنتها فى حافظتى ، عن تاريخها ، وحضارتها ، وفلسفتها ، وثوراتها ، وحروبها ، وكفاحها الطويل المضنى ، وانتهائها الى أن أصبحت دولة أقرب الى الألغاز والأحاجى والطلاسم ! يختلف الناس فى الحكم عليها ، اختلافات بينة ، تثير كثيراً من الفضول ، والتطلع الى الوقوف على حقيقتها ٠

ما هى ٠٠٠ الصين هذه ؟ ٠٠

هل هى خطر يتحفز لتعكير سلام العالم ، كما يذيع عنها خصومها ؟..
أم هى دولة مسالمة ، لا تؤمن بعدوان ، ولا تستعد لغزو ، ولا تتهيأ لقتال ؟ ..

وماذا عسى أن يكون شعبها ؟ ..

هل لا يزال منوما مخدراً ، من طول ما عاش على الأفيون ، ودمره المخدر ، واستبدت به الخيالات والأوهام ، أم أنه قد أفاق وصحا ، وأستبدل الخيالات بالحقائق ، والأوهام بالواقع ؟

ألم تنهكه الخلافات ، وحروب العصابات ، فتشل من حركته ، وتثقل من قواه ؟

والمرأة ، والطفل ، والقرية ؟... والقوميات المختلفة المتباينة ، واللغات الكثيرة المنوعة ؟..

ونظام الحكم ! !

أهو شيوعى صريح واضح ؟ !

يبيح الملكيات الكبيرة ، ويحمى الرأسماليين !.. ويترك الأحزاب المختلفة تباشر نشاطها ، وحرياتها ، وتشارك فى تمثيل الأمة فى المجالس النيابية !.. بل وتشارك فى حكم البلاد ؟..

... وهكذا تتداخل هذه المسائل جميعا ، فلا تكاد تنتهى ، حتى تبدأ من جديد ، وهى تبدو لك غريبة ، وفى بعض الأحيان متناقضة .

* * *

ونغادر « هونج كونج » ، المستعمرة البريطانية ، ذات المليونين وبضعة آلاف نسمة ، ٩٩٠/٠ منهم صينيون ، والتى تعدو فى طرقاتها ، السيارات الفاخرة ، وترتمى على أرصفتها الجثث الجائعة ، وتنمو فيها الثروات ، كالحشائش أو الأعشاب ، من غير بذور ولا مجهود ! وتذوب فيها الثروات ، ذوب ضمائر اللصوص والأفاقين وتجار الرقيق !

ويمضى بنا القطار ساعة ونصف ساعة ، نمر خلالها بعدة محطات ، حتى نصل الى آخر حدود المستعمرة ، عند محطة « لو » .

وأتطلع لأرى منظرا من أعجب المناظر التى مرت على ..

هنا ... هنا بالذات ، الفاصل بين المستعمرة البريطانية ، والأرض الصينية !..

هنا الحد بين السلطة البريطانية والسلطة الصينية !..

هنا ضابط جوازات بريطانى ، وجمرك بريطانى ... وهناك موظفون صينيون يراقبون بدورهم الجوازات والجمارك !

هنا علم بريطانى يرفرف على آخر حـدود المستعمرة ... وهنـاك علم أحمر ، ذو خمسة نجوم بيضاء ، يرفرف على أول حدود الصين ...

والأمر بعد ، لا يعدو قنطرة خشبية ، لا يتجاوز عرضها ثلاثة أو أربعة أمتار فوق نهر صغير ، هى حدود مستعمرة « هـونج كونج » من الصين ، تعبرها على الأقدام فى ثوان ، فيتغير النظام ، ويتغير نوع الحكم ، ويتغير القانون ، وتتغير العقوبات ، ويتغير أسلوب الحياة ، ويتغير المجتمع الذى تتعامل معه !..

وبدلا من أن تكون فى محطة « لو » ، تجد نفسك ، فى محطة تسمى « شن جن » وهى أولى محطات سكة حديد الصين ، وأنت قادم من « هونج كونج » .

وتحس من الخطوة الأولى ، التى تخطوها فى أرض الصين ، أنك أمـام نظام آخر ، وحياة أخرى .

وتتقدم فتاة صغيرة ، قصيرة القامة ، فى بدلة زرقاء ، كبدل الرجـال تماما ، لا أثر فى وجهها لتجمل ، أو مساحيق ، تتحدث الانجليزية ، وتقدم الى مندوب فرع اتحاد الصحافة فى كانتون .

وأقدم له الزملاء الذين يرافقوننى ، ثم أمضى معه ، فى ممر طـــويل ، ملئت جوانبه بالصور والرسوم والعبــارات الصينية ، وأنا أتطلع الى كل شىء ، وأحملق فى كل وجه ، محاولا أن أتبين حقائق الناس ، وعناصر هذا المجتمع ، من أول خطواتى فيه ٠

وأحس الفارق من أول وهلة ٠

من أبسط المظاهر التى يلاحظها الانســـان ٠٠٠ من نظراته الأولى الى الناس ، والى الأشكال ٠

عدد كبير من الفتيات يعملن هنـــا ، فى محطة « شـــن جن » ، بجانب الرجال ، وجميعهن يرتدين بدلا زرقاء ، كبدل الرجال ، كما أنهن جميعــا بغير مساحيق ٠

وظاهر بوضوح أن مستوى سن عمال المحطة صغير ، فالغالبية العظمى شباب ، بين العشرين والثلاثين ٠

وظاهرة أخرى تلفت النظر ، هى الحفاوة بوضع صور « ماوتسى تونج » رئيس الجمهورية الصينية ، بجوار زعماء الماركسية ، ابتداء من الفيلسوف انجلز ، الى ماركس ، الى لينين ، الى ستالين ، الى بولجانين ٠

ثم اذاعـــة الموسيقى والأغانى والأخبـــار ، داخــل محطات الســـكة الحديد ٠٠٠

على أن شيئا ما ، كان من الوضوح بحيث لفت أنظارنا جميعا فى أولى محطات الصين ٠

لقد بدأ هذا المنظر ، ونحن فى محطة « لو » التابعة للادارة البريطانيـــة التى تستعمر « هونج كونج » ورافقنا المنظــر نفسه ، فى مكتب ضـــابط الجوازات البريطانى ، ثم فى الجمارك البريطانية ، ونحن نغادر المستعمرة المجنونة ، الى أرض الصين ٠

ثم لما دخلنا الأرض الصينية ، وجدنا بقايا المنظر فى محطة «شن جن»

عدد ضخم من الناس ، كلهم صينيون ، فيهم رجال وشباب ، ونســاء واطفال ، يعبرون حدود الصين الى « هونج كونج » !

الرجل يحمل متاعه ، ويسير به عبر الحدود .

والمرأة تحمل طفلها على ظهرها ، كما نعرف عن العادةالصينية القديمة ، وتقف به أمام ضابط الجوازات ، تنتظر تأشـــيرة الدخول ، فاذا طالت وقفتها ، واندفع طفلها فوق ظهرها يبكى ، أخذت تهزه لتغريه بالسكوت ، وتستميله الى الرضا ،وهى لا تنقله من مكانه على ظهرها ، ولا تلتفت نحوه لكثرة ما يشغلها الزحام والتدافع .

ومكتب ضابط الجوازات البريطانى نفسه ، ملىء باستمارات ، عليهـــا صور أشخاص مختلفين ، على مكتبه ، وبجوار مكتبه ، وفوقأرض الحجرة ، حتى ليصعب عليك أن تدخل اليه ، دون أن تثب ، لتتفـــادى أن تطأ هذه الاستمارات بقدميك .

وعجبت وعجب الزملاء !

وتبادلنا النظر الى بعضنا ، فى تساؤل !

وأحسست أن كل واحد منهم ، قد طوى نظراته ، على قلق !

ولم يكن من اللائق ، أن أسأل المندوب الذى استقبلنا عن تفسير لهـذا المنظر ، ونحن نخطو خطواتنا الأولى فى الأرض الصينية .

على أن الأمـــر زاد تعقيدا ، عندما أخذنا نصـــادف عمالا صينيين فى المحطة ، أو عاملات ، وقد غطوا أنوفهم وأفواههم ، بلثام أبيض ، يربطونه حول آذانهم ، حتى يثبت على وجوههم ، كما لو كانوا جراحين أو ممرضين فى حجرة العمليات ..

ونظرت الى الزملاء حولى ، فاحســـت أنهم جميعا يخفــون سؤالا واحدا : ما هذا ؟

ما هذه الجماعات المتزاحمة المتدافعة التى تعبر الحــــدود ، من الصين الى « هونج كونج » ؟

وما هذه الأقنعة البيضاء ، التى تغطي وجوه هؤلاء العمال المتفرقين على أرصفة محطة « شن جن » ؟..

واستبد بى بدورى فضول شـــديد .. أخذت أذيبه فى ابتسامـــات تقليدية متبادلة ، مع المندوب المكلف باستقبالنــــا ، وأنا بين حين وحين ، أتلفت يمينا ويسارا ، والى أمام ووراء ، لعلى أجد جوابا عما أحسه ، دون أن أحتاج الى سؤال .

لقد أدرت فى ذهنى جميع الردود التى يمكن أن أتلقاها على أسئلتى ..

مـــا هؤلاء ؟

أهم لاجئون صينيون ، يغادرون الصين الى « هونج كونج » ، المستعمرة البريطانية ، المقتطعة اقتطاعا ، من أرض الصين ؟

وما هؤلاء ؟

ما هذا اللثام الأبيض على وجوههم ؟

ألمنعهم من الكلام ؟ ألأن لهم وظيفة ، هى أن يروا ، ويراقبوا ، دون أن ينطقوا بحرف مما يرون ؟.. أم ماذا ؟!..

ولم أستطع أن أصبر على هذه الاحتمالات ، فســـألت المندوب الذى كان فى استقبالنا ، ونحن على مائدة الغداء ، فى محطة « شن جن »

واذا الرد ، شىء بعيد جدا ، عن كل ما سبق من احتمالات ..

أن هؤلاء الصينيين ، لهم أسر وأقارب فى الصين ، وأغلبهم ينتمون الى أصول من المناطق المجاورة « لهونج كونج » ، وقد جـــرت عادتهم على أن يتزاوروا مع أهليهـــم وأقاربهم ، والمـــلاحظ أن هذه الزيارات تـــكثر فى المناسبات الخاصة .

واضاف المندوب ، أن المعرض السوفياتى الذى أقيم أخيرا فى «كانتون» كان مناسبة هامة ، ضاعفت هذه الزيارات ، فقد سجل الاحصاء ، أن مائة

هذا القناع ... لماذا يلبسونه ؟.. سؤال حيرنا جميعا !..

الف من الصينيين المقيمين فى « هونج كونج » ، زاروا « كانتون » ، لمشاهدة هذا المعرض .

أما اللثام الأبيض ، فقد خجلت من الاستفسار عنه وقتها ، ولكن الاقامة فى الصين ، دلتنى الى أنه تقليد صينى معروف .

لقد درج الناس على استعمال هذا اللثـــام ، لحماية أنفسهم من تغيرات الطقس ، أو لحماية سواهم من أمراض البرد التى يصابون بها ٠

بل أن الحلاق مثلا ، لا يقترب من الزبون ، قبل أن يرتدى هذا اللثام ، وبهذا يعفى زبونه ، من أنفاسه الباردة ، أو الملتهبة ، تنساب على وجهه ، فتثير أعصابه طول مدة جلوسه أمامه ٠

والطباخ لا يباشر عمله فى مطبخه ، قبل ان يضع هذا اللثام على وجهه ، ضمانا لنظافة الطغام الذى يعده ٠

وكذلك تجد عمال المصانع أو المعامل ، التى تثور فى عنابرها الأتربة ، أو يحتمل أن تثور ٠٠٠ تجد هؤلاء جميعا ملثمين ٠

وفى مصانع الأدوية ، ومخازنها ، وصالات تعبئتهـــا ، يرتدى العمال والفنيون والزوار أيضا المعاطف البيضاء ، والأقنعة البيضاء و «الجونتيات» البيضاء كذلك ٠

وأعجبتنى هذه العادة بعد أن فهمتها ٠٠ وعجبت من لحظات القلق التى انتابتنى عندما رأيت أول فريق ملثم فى محطة « شن جن »

وتمنيت لو أن هذه العادة تدخل مصر ، ولو بين الحلاقين

اذن لما رآنى الناس فى أغلب أيامى ، مطلقـــا شعرى فى غير مبالاة ، تفاديا لأنفاس الحلاق !

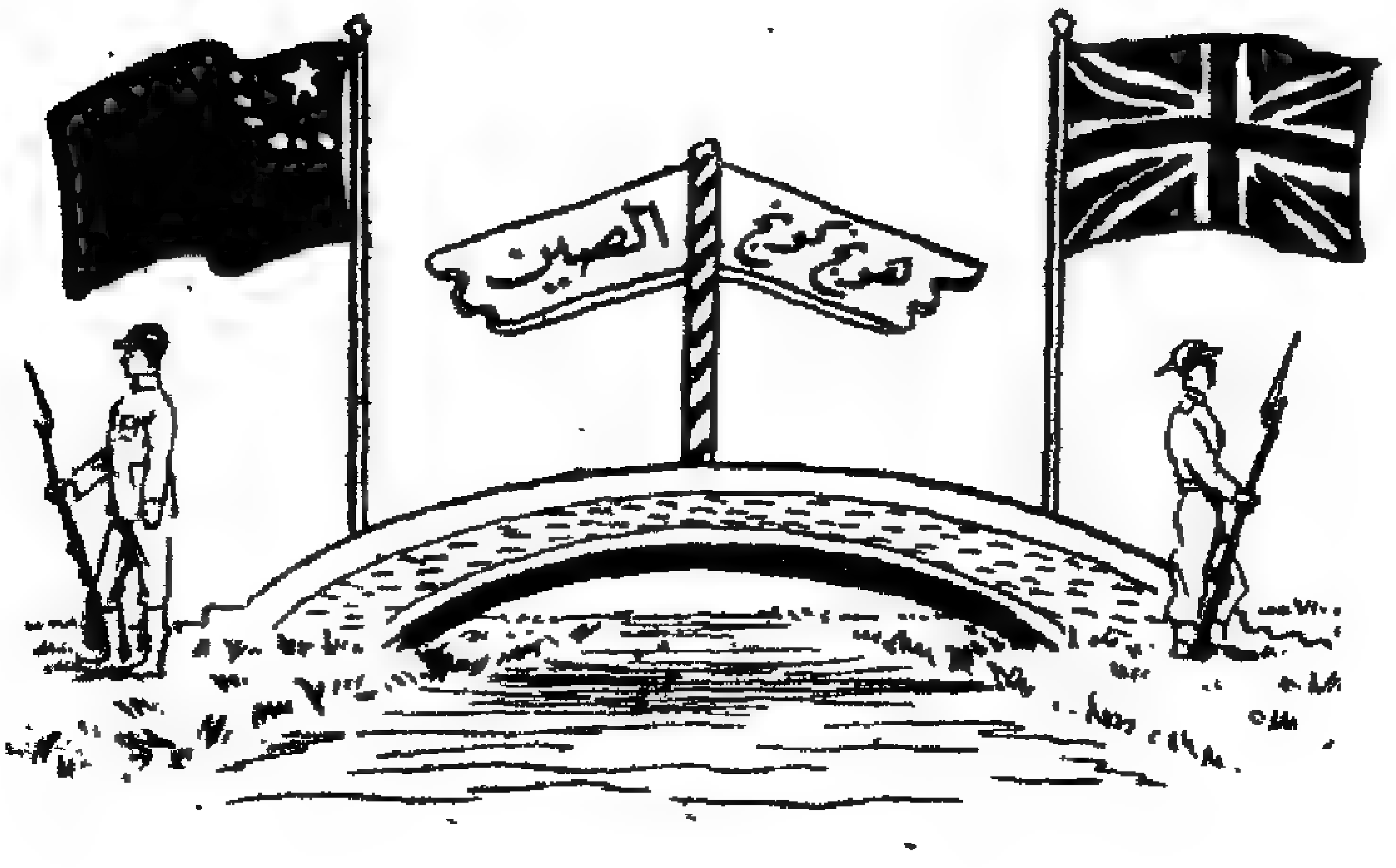

وغادرنا « شن جن » بعد الظهر ، فى طريقنا الى كانتون ، أكبر المدن الصينية فى الجنوب ، وأول قلاع الثورة فى الصين •

وكان علينا أن نمضى فى القطار ، أكثر من أربع ساعات ونصف ساعة لنصل الى هذه القلعة التاريخية ، التى نشأ فيها أبو الثورة فى الصين ، الدكتور صن يات صن ، والتى باشر فيها مهمته الثورية منذ سنة ١٨٩٥ •

معذرة ان كنت سأعرض لبعض التفصيلات الصغيرة ، قبل أن أتناول الكليات الكبرى ، عن حقيقة الصين ، ووضعها الراهن •

ولكن هذه التفصيلات الصغيرة ، قد تكون أحيانا أكثر دلالة على حقيقة الحياة ، من الكليات الشاملة العامة •

أن مستوى القطار الصينى الذى ركبناه ، لم يكن فى مستوى قطارات المستعمرة البريطانية ، « هونج كونج » •

والغريب أنه كان مقسما الى درجات •

ولقد كنا فى أحدى عربات الدرجة الاولى ، ذات المقاعد اللينة ، المكسوة بالقطيفة •

ولكن برغم هذا ، فالحق أن المستوى العام لهذه الدرجة ،كان فى مستوى درجتنا الثانية فى مصر ، وربما كان دون مستوى درجة الثالثةفىالقطارات البريطانية •

على أن هناك مزايا أخرى ، فى قطارات سكك الحديد الصينية •

الميكروفونات فى جميع العربات ، دون تفريق بين الدرجات ، تذيع على الركاب الموسيقى والاغانى والأوبرات ، وتنبههم قبل كل محطة الى

اسمها ، وميعاد الوصول اليها بالضبط ، وبعد تحرك القطـارات من كل محطة ، يعلن عن المحطة المقبلة ، وميعاد الوصول اليها تماما ٠

ثم مستوى الخدمة فى القطار بعرباته جميعا ٠٠ فلا تكاد تمضى نصـف ساعة ، حتى تجد عاملا من عمـــال القطار مقبلا ، وفى يده فوطة لتنظيف العارضة الخشبية بين مقاعد الركاب ، وجمع ما قد تكون عليها من فضلات ويتبعه عامل آخر لمسح الأرض وتنظيفها ، ثم عامل ثالث لتغيير الشاى فى الكوبات المنثورة أمام الناس ، أو ملئها ٠

وقبل أن أمضى أحب أن أقول هنا ، أن الشـــاى هو الماء فى الصين ٠٠ وهو مختلف الأشكال والألوان والأصناف ، والغالبيـــة العظمى تشربه دون سكر ٠

ثم عربات الأطفال فى القطارات ، لا يكاد يخلو منها قطار ، وهى مهيأة تهيئة خاصة لاستقبال الأطفال من أمهاتهم ، ضمانا لراحتهم وراحة أمهاتهم معا ، وراحة الركاب من صيحاتهم أيضا ٠

وهذه العربات تحوى أسرة مريحة ، ومجهزة بالأغطية اللازمة ، وجدرانها زاهية ، مشرقة ، مزركشة ، وهى متروكة لعدد من المربيات والممرضات ، يقمن على خدمة الأطفال ، خاصة فى الرحـــلات الطويلة فى القطارات ٠٠ وتستطيع الأم مطمئنة ، أن تسلم طفلها فى هذه العربة ، دون أن تدفع عن ذلك أجرا ، وتذهب اليه كلما أحتاج للرضاعة أو الملاحظة الخاصة ، ثم تعود الى مكانها فى القطار ، دون أن تشغل نفسها ، وتشغل القطار ، وتشغـل معها عشرين راكبا حولها ، يراقبون الطفل ، ويتقلبون على صيحاته ، ويؤذى أحساسهم ، ما تخرج منه من فضلات !

أما عربات النوم فى القطارات ، فهى فى الواقع متعبة ، خاصة فى بلد كالصين ، مسافاتها طويلة شاقة ٠

وعربة النوم فى القطار الصينى ، عبارة عن أحدى عربات الدرجة الأولى ، تنقلب الى اسرة للنوم ، وذلك بوصل كل مقعدين متقـابلين وتحويلهما الى

سرير ، ثم تقام عوارض خشبية فاصلة بين كل سرير وآخر ، كما تمتـد عوارض أخرى علوية ، لاقامة الطابق الثانى من اسرة النوم .

وبهذا تصبح الاسرة متقابلة فى عربة النوم ، ومفتوحة عــلى الممرات بحيث تجد نفسك نائما وأمامك زميل آخر ، لا يفصلك عنه الا ممر رفيع .
وباستثناء القطار الدولى فى بكين وموسكو ، وهو قطار فاخر حقيقة ، فيه من وسائل الراحة ما لم أجده فى كثير من قطارات العالم ، وهو قطار روسى ، يقطع المسافة بين العاصمتين فى اسبوع كامل ..

باستثناء هذا القطار نجد ان وسائل الراحة فى عــربات النوم ، فى القطارات الصينية ليست فى مستوى قطارات دول الدرجة الثانية .

المهم هو أن رحلة القطار الى كانتون ، والمدة التى قضيناها فيه ، هيأت لنا فرصة الاختلاط بأول مجتمع صينى ، من مختلف الدرجات والمهــن والأمزجة ...

وقد لمسنا من أول وهلة أن الشـعب الصينى شعب طيب ، مهــذب ، كريم ، مضياف .

كانت الابتسامة الطيبة على الشفاة ، هى التعبير الأول عن الترحيب بنا .

وكانت النظرة الحانية فى العيون ، هى الترجمان الأول لما يحســه الناس نحونا ..

وكانت مظاهر أدب المعاملة ، رغم اختــلاف اللغة ، هى الميراث الحقيقى الذى ورثه أبناء الصين ، من ماضيهم الطويل العريق .

وذكرت ما قاله لى قنصل الصين فى كلكتا عن شعوب المدنيات القديمة .

قال : « **هل أتصلتم بالشعب الهندى ؟ .. هل أختلطتم به ؟ .. أرجو أن تجدوا من وقتكم متسعا لهذا ، فأنكم ستجدونه شعبا طيبا ، عريقا ،**

مسالما ، كريما ، شأنه فى ذلك شأن أبناء مصر ، وأبناء الصين ، فأنهم جميعا أبناء مدنيات قديمة ، وحضارات عريقة ، فيهم من عناصر الانسانية الأصيلة مايرفع مستواهم الانسانى ، بما يفوق أى تقدم مادى حققه سواهم من الشعوب » .

وذكرت هذا الكلام ، وأنا أختلط بأول مجتمع صينى فى القطار الى « كانتون » ، وذكرت معه شعب مصر الطيب ، الساذج ، الكريم ، المضياف ...

* * *

... ووصلنا « كانتون » مع المساء ، وكنت أقف فى أول العربة ، متأهبا للنزول ، ولكنى لمحت من باب القطار عددا كبيرا من المستقبلين ، وعددا كبيرا من أطفال المدارس ، فى سن يتراوح بين العاشرة والثالثة عشرة ، وقد أرتدوا البنطلونات القصيرة ، والقمصان البيضاء ، ووضعوا حول رقابهم مناديل خضراء ، أقرب الى مناديل الكشافة ، وفى أيديهم باقات من الورود ... وكان هؤلاء وأولئك شبه منتظمين فى صفوف .

ولم يدر بذهنى أن هذا كله من أجلنا ... وكان من أجلنا ..

ونزل المندوب المرافق ، ودعانى للنزول ، وقدم الى نائب رئيس فرع اتحاد الصحافة بمدينة « كانتون » ، الذى قدم لى المستقبلين من زملائه الصحفيين الصينيين .. وقدمت له الزملاء الذين يرافقوننى ..

وبعد أن انتهت مهمة التقديم وتبادل عبارات الترحيب ، صحبنى نائب رئيس فرع الاتحاد الى أول طابور الأطفال الصغار ، فقدم لى الطفل الأول فصافحته ، فقدم لى باقة الورود الجميلة التى كان يحملها ، وأمسك بيدى فى ترحاب دافىء حار ، وتقدم بى نحو باب الخروج من محطة « كانتون » .

وأحسست بمرافقى الطفل الصغير ، يضغط على يدى ، فى ود وصداقة ، وينظر الى مبتسما ، ثم يتطلع الى الأمام فى زهو وفخار ، وكان الناس قد تجمعوا ليروا هؤلاء الضيوف القادمين .

واستقبلتنا « كانتـــون » بورودها ، واطفالها ...

ونظرت خلفى لأتبين الزملاء الأخر ، فاذا هم فى صف طويل ، وفى يد كل منهم باقة من الورود ، وفى اليد الأخرى الطفل الصغير الذى أختير لمرافقته .

وتأثرت بانسانية الاستقبال ، وخيل الى أننى أمسك بابنى ، أشد على يده ، ويشد على يدى .. كلانا يعطى ويأخذ .. تجارب العمر .. وأمل المستقبل ..

وخرجنا من المحطة ، فوجدنا السيارات فى انتظارنا ...

وإذا الطفل الذى يرافقنى ، يودعنى مصافحا ، فى ابتسامة رقيقةعذبة ، فما أن يتكامل عددنا داخل السيارات ، حتى يكون مستقبلونا من أبنـاء الجيلين ، جيل اليوم وجيل الغد ، قد تراصوا حول السيارات ، يلوحون لنا مودعين .

وهكذا كان استقبالنا فى أول مدن الصين .. فى « كانتون » .

وعجبت لمتناقضات التاريخ ! !

« كانتون » هذه .. وقد كانت فى القـرن التاسع عشر ، مقر تجار الأفيون والمخدرات ، من الأجانب المستعمرين ، ولم يكن لهؤلاء من عمل الا أن يجمعوا المال ، من دماء الشعب الصينى وأعصـابه ، لينعموا هم بالحياة ، على جثث المخدرين النيام .

و « كانتون » هذه ... وقد تطاير منها أول شرر الثورة ، وسقط على أرضها أثنان وسبعون شهيداً ، كل ما اقترفوه من خطايا ، أنهم جـرأوا يوما على الهتاف بالحرية ، والمطالبة بالاستقلال ، ومعارضة سلطان الأباطرة الخونة المتآمرين ...

و « كانتون » هذه ... وقد تطور فيها الوعى الثورى ، فشـهد أول معهد للفلاحين ، يعلمهم فنون الثورة ومطالب الشعب ، وحاجات الأمـة

ووسائل تحقيقها ، ويدربهم على بث الوعى الثورى بين القرى ، حتى تتحد جميعا فى طريق واحد ، وتعمل لغاية واحدة .

أهذه « كانتون » ؟!!

تستقبل الضيوف بالورد ، وفلذات الأكباد ؟

لقد جلست فى فندقى لحظات ، أتأمل الورود وقد تعانقت ، واستعيد صور الاطفال ، وقد أخذوا يلوحون لنا فى ود وحب وسذاجة ... محاولا أن أربط بين الماضى والحاضر ، فى هذه المدينة ذات التاريخ العجيب ، فلم أجد الا شيئا واحدا ، يمكن أن يصل الازمان ، والأجيال ... وهو حضارة الصين ، ومدنية الصين ، تتخلل أوصال الزمن ، وأوصال الأجيال ... لاتعوقها العوارض الطارئة ، سواء كانت من الداخل أو من الخارج ، وسواء حملت اسم هذا المذهب أو ذاك .

أن « كانتون » ، هى المدخل الطبيعى الى الصين ، من الجنوب ٠

وهى بطبيعتها كميناء الصين الجنوبى لعبت فى تاريخ الصين ، دورا هاما وخطيرا ٠٠٠

فهى التى ربطت الصين دائما بجزء هام من العالم ، باليابان مثلا ، واندونيسيا ، والهند ، وبقية اجزاء العالم الغربى ٠

ومنها نفذ الى الصين التأثر بالخارج ، ونفذ من الصين الى الخارج ، شعاعات المعرفة الصينية ، والحضارة الصينية ٠

صحيح أن الشمال الشرقى للصين ، يربطها بالاتحاد السوفييتى ، ولكنه صحيح أيضا ، أن هذا الشمال الشرقى ، كان دائما مجالا لحروب أقطاعية لاتنتهى ، واضطرابات وفتن ، تجعل الاتصال بالخارج غير آمن ، وغير مستقر ، وغير مستطرد ٠

وربما كان لقسوة الطبيعة فى الشمال ، وقسوة الطقس ، أثر فى عدم صلاحية هذا الجزء من الصين ، كممر ممهد ، للتأثر والتأثير الخارجى ٠

لهذا فقد حظيت « كانتون » بحظ أوفر من هذه الناحية ، وهيأ لها موقعها الجغرافى ، فرصة أوسع ، لتلعب فى تاريخ الصين دورا هاما فى علاقاتها بالعالم الخارجى ٠

فمثلا ، نفذ تأثير الهند الى الصين ، ممثلا فى التأثير الدينى ، عن طريق البوذية ، من « كانتون » ، ومنها تسرب الى بقية اجزاء الصين على ممر الأجيال ، فانتشرت البوذية ، ومعابدها ، ونقوشها ، وآلهتها ، ومعتقداتها فى ولايات كثيرة متفرقة فى مختلف انحاء الصين ٠

ومثلا ، نفذ التأثير العربى الاسلامي الى الصين ، عن طريق « كانتون » ، فكانت هذه المدينة التاريخية ، هى أول مدينة نزلها العرب ، وسكنوها ، ونشروا فيها الاسلام ، وبنوا المسجد الأول فى أرض الصين ، وأكلوا هناك تمرا ، ثم القوا النوى ، فكان نخيلا ، عاش من يومها ، يدل على أن العرب جاءوا الى هذا المكان .

قد يكون هذا غريبا ، ولكن ترجيح المؤرخين ، ان النخلة شجرة عربية ، عاشت مع العرب فى صحراء العرب ، وانتقلت معهم الى كل مكان ذهبوا اليه .

ويفسر المؤرخون هذه الظاهرة ، على أساس العادة ، فقد درج العرب على أن يحملوا معهم التمر ، فكانوا يأكلونه ، ثم يرمون نواه ، فتنبت أشجار النخيل .

ومن هنا ، أصبحت شجرة النخيل ، فى أى مكان توجد فيه ، دلالة على أن العرب كانوا هنا ..

تجد هذا النخيل ، فى كل مكان من العالم العربى ، وتجده فى أسبانيا ، وتجده فى تركيا ، وتجده كذلك فى ايران .

وها أنذا قد وجدته فى الصين ، وأغلب الظن أنه موجود فى سيلان وبورما ، وكل مكان ذهب اليه العرب ، بمذهبهم ، ودينهم ، ونخليهم .

* * *

وقد زرنا أول مكان نزل العرب فيه فى « كانتون » فى منطقة معروفة باسم « كوانتا » وفيه بنوا أول مسجد ، ومنارة بحرية كذلك ..

وهناك لقينا امام المسجد ، السيد يوسف اسحق ، ورحب بنا وحيانا لأول مرة ، منذ غادرنا مصر ، بتحية الاسلام ، وهى « السلام » .

وقد وجدناه ، كما وجدنا جميع أئمة الدين فى الصين ، بلحية طويلة بيضاء ، وعلى رأسه طاقية بيضاء ، وفوق ملابسه معطف فى شكل «الكاكولا» .

وكانت أولى معلوماتنا عن المسلمين في الصين هنا في هذا المكان ٠

وعرفنا أن أول من وفد الى آلصين من العرب المسلمين ، شخص يدعى « ابن الوقاص » ، استقر في « كانتون » ، ودفن في نفس المكان الذى نزل فيه ، وبنى فيه المسجد الأول والمنارة البحرية ، منذ ١٣٠٠ سنة ٠

وعرفنا أن المسلمين في « كانتون » ، يبلغ عددهم حوالى ٢٨٠٠ ، مسلم يتجمعون بحكم العادة ، في منطقة « كوانتا » ، حيث مسـجدهم ، وحيث معهدهم ، وحيث نزل جدهم الأول : « آبن الوقاص » ٠

وقيل لنا أن معهدا اسلاميا قد الحق بالمسـجد ، وأن هذآ المعهـــد يلقى عناية الدولة ورعايتها ، بشكل لم يعهده المسلمون من قبل ٠

وهذا المعهد عبارة عن مدرسة عادية ، تضم ٦٤٢ ، منهـــم ٢٩٥ مسلم ، يدرس لهم ثلاثون مدرسا ، ويديره ناظر مسلم ، قال لنا أن العناية متوفرة بدروس الدين الاسلامى ، الطلبة المسلمون يدرسون أصول دينهم مرتين كل أسبوع فضلا عما يتلقونه من دروس في أوقات فراغهم في المسـجد ، عقب الصلوات ، في حلقات عامة ، يحضرها من يريد من المسلمين ٠

* * *

وقد دخلت في مناقشة طويلة مع امام المسجد

كنت أريد أن أعرف مدى الحرية الدينية في الصين الشعبية ٠

وكنت أريد أن أقف على مدى العلاقة بين مادية ماركس ، وروحانية الاديان

قلت للأمام : هل تتمعتون بحرياتكم الدينية كاملة ؟

قال : نعم ، بل اننا نحس حرية اكثر في ظل هذا النظام ، فقبل تحرير الصين ، كنا نلقى كثيرا من العنت ، وكثيرا من الاهمال ، أما الآن ، فالدولة تحمى حرية معتقداتنا ، بل تساعدنا في اصلاح المساجد ، واقامة المعاهد ، وتعليم أبنائنا على أسس اسلامية ٠

وسألته : ما موقف الدولة من الزواج بأكثر من واحدة مثلا ؟

وأجاب : لا لا .. هذا ممنوع بنص القانون .

ـ وهل جرى العرف بين المســلمين فى الصـــين على الزواج بأكثر من واحدة ؟

ـ نعم ، كان يحدث هذا قبل تحرير الصين .

ـ وماذا فعلت الدولة بمن أدركتهم وكانوا قد جمعوا بين زوجتين ؟

ـ تركت القديم على قدمه ، ولكنها لم تسمح بهذا بعد ذلك .

ـ وما موقف الدولة من نظام الميراث الاسلامى ؟ هل للذكر فى الصـــين مثل حظ الأنثيين ؟

ـ لا ... المساواة تامة فى الصين بين الرجل والمرأة بنص الدستور .

ـ وهلا ترى ان هذا يناقض التشريع الاسلامى ؟

ولم أحصل على جواب .

على أنى حصلت على هذا الجواب فى بكين ، من الاســـتاذ محمد مكين أستاذ اللغة العربية بجامعة بكين ، ومن سواه من زعماء المسلمين .

كان تفسيرهم ، هو أن القاعدة أن الاسلام دين تطور ، وقد بنى التشريع على أن التزامات المرأة فى المجتمع الاسلامى ، كانت دون التزامات الرجل ، كما أنها كانت متأخرة ، وكانت مشاركتها فى الحياة والانتاج محدودة ، مما جعلها لفترة طويلة من حياتهـا ، محدودة المســئوليات ... لهـــذا كان التشريع منطقيا مع الواقع القديم ، فلما تطورت الأمور ، وأصبحت المـرأة متساوية تماما مع الرجل ، فى الأنتاج ، وفى تحمل المسئوليات الخاصـة والعامة ، فتغيير التشريع ، يصبح مسايرآ لهذا التطور الجديد .

على أى حال ، هذا تفسيرهم ، وسواء أكان متفقا مع الدين ، أو غـــير متفق ، فهى الحقيقة ... فى الصين .

* * *

ومادمت قد بدأت الحديث عن المسلمين فى الصين ، فمن الخير أن أتمه .

والحقيقة أننا لم نزر الشمال الغربى ، حيث يتجمع أربعـــة ملايين من المسلمين فى قومية تسمى « الخوى » ، فان الرحلة اليهم ، كانت ستستغرق منا أسبوعا على الاقل ، فى الذهاب والاياب ، وأسبوعا على الأقل نقضيه هناك ، مما كان يمد فى زيارتنا الى الصين ، أسبوعين آخرين ، غير مشاق السفر ، ومصاعب الطريق ، واستعمال جميع وسائل النقل ، من طائرات الى قطارات ، الى سيارات .

على أننا شهدنا المجتمع الاسلامى فى « بكين » ، وفى « شنـغهاى » وفى الشمال الشرقى ، مما يمكن أن يعطى صـــورة ، عن حياة المســـلمين فى الصـــين .

والذى أفخر به كمسلم ، وسجلته فى حديثى فى محطة اذاعة بكين ، هو أننى لم اسمع أن مسلمى الصين ، كانوا خونة لوطنهـم فى يوم ما ... بل العكس هو الصحيح ... كانوا دائما وطنيين ، يقفون فى جانب الـكفاح ضد الاستعمار ، واذناب الاستعمار ، من الخونة ، واللصوص ، والمستغلين ، وقد سقط منهم ضحايا ، فى ثورات الشعب التحريرية ، وسجن وطنيون ، ظل بعضهم فى السجون حتى أنتصار الثورة فى سنة ١٩٤٩ ، واشـــترك عدد كبير من شباب المسلمين ، فى الكفاح المسلح ضد القوات اليابانيــة ، وضد الاقطاع .

وعندما قابلنا شو ـ اين ـ لاى ، رئيس وزراء الصين ، وكان قد دعا السيد نور محمد وكيل الجمعية الاسلامية فى الصين ، ليحضر اجتماعنا به قال لى :

لقد تخطيت الخمسين ، وللواحد منا دورتان ، واحدة الى أعلا ، والأخـرى

السيد نور محمد

وكيل الجمعية الاسلامية الصينية يؤدى الصلاة فى الصين

الى أسفل ، والحد بينهما هو سن الخمسين ··· ومهمتنا الآن أن نرصف الطريق أمام الشباب ·

والتفت رئيس الوزراء الى السيد نور محمد وقال : الا السيد نور محمد فبرغم أنه تخطى الثمانين ، الا أنه شاب ، فى نشاطه ، واحساسه ، وحيويته

وأضاف رئيس الوزراء : أننـــا معجبون بالعـــرب والمسلمين ، لقـــوة أجسامهم ، ووحيوتهم ·

وكانت مجاملة مهذبة من رئيس الوزراء ، لوكيل الجمعية الاســلامية ، الذى تخطى الثمانين ·

ولاشك أنها مجاملة أعجبتنا ، كمسلمين ، وكعرب ·

من هذا يتضح ، أن للمسلمين فى الصين مكانة طيبـــة ، وأن مركزهم القومى كجماعة ، مركز محترم مرموق ·

وقد أتضح لنا ، أنه لاخصومة بين المســـلمين والنظام ··· فهـــم ، كمسلمين ، قانعون بحريتهم الدينية ، والمساعدات التى تقدمها لهم الدولة ··· وهم ، كمواطنين احرار فى اعتناق مايشاءون من آراء ، طالمـــا لاتؤثر هذه الآراء على النظام الاساسى للدولة ، كما حدده الدستور ، واتفقت عليه كلمة الأحزاب ·

وفى الحكومة المركزية فى بكين ، ادارة أنشأتها الدولة للأديان ، مهمتها تنسيق الصلات بين الحكومة ورجال الدين ، سواء فيما يتصل بالمصالح ، أو العادات ، بحيث تضمن الدولة تلبية رغبات أصحاب الديانات جميعا ، فى حدود النظام الموضوع ·

وقد زرنا هذه الادارة ، وتحدثنا مع مـــديرها ونوابه ، ومنهـــم نائب مسلم ، اسمه السيد محمد على ، يشغل منصب سكرتير الجمعية الاسلامية فى بكين فى الوقت نفسه ·

وقد ســألت السيد محمد على عن رأيه فى النظام الاشـــتراكى ، ومدى تمشيه مع تعاليم الدين الاسلامى ، فقال بصراحة : أنا شخصيا لم ادرس الماركسية ، ولا اللينينية ، ولذا فأنا لااستطيع أن اجيب عن هذا السؤال

ومعنى هذا ان النظام القائم فى الصين ، يكتفى من رجـــال الاديان بالا يقفوا ضده ، والا يعوقوا حركته ... أما أن يكونوا معـه ، فهذا مالا يصر عليه ... وهو ــ النظام ــ من أجل هذه الغاية ، يقدم المساعدات الملموسة للأديان ورجال الأديان .

ففى « بكين » مثلا ٦٧ مسجدا .

وفى « شنغهاى » ٢٧ مسجدا .

وفى « كانتون » ، « و سنيا » ، و « هاربين » وجميع المدن التى زرناها مساجد ، يقوم على خدماتها الدينية أئمة ، يبلغ عددهم فى جميع انحـــاء الصين مائة ألف !

فاذا عرفنا أن عدد المسلمين فى الصين هو عشرة ملايين ، ادركنا أن لكل مائة مسلم صينى ، أمام ! ..

وقد لفت نظرى هذه النسبة الـكبيرة لأئمة المسلمين ، فلمـا أبديت هذه الملاحظة لأكثر من امام ، قيـــل لى أن مهمة الامام ليسـت قاصرة على أن يؤم الصلوات للمسلمين ، ولكنه يعلمهم القرآن والسنة وتعاليم الدين ، وفى بعض الأحيان ، يعطى دروسا فى اللغة العربية ، كما يعطى دروسا فى الدين فى المدارس الملحقة بالمساجد ، والمخصصة غالبتيها لأبناء المسلمين .

ثم هو فضلا عن ذلك يرعى شئون المكتبة الملحقة عادة بالمســجد ، وهى مكتبة دينية وعامة فى وقت واحد .

ولهذا فان المهمة الموكولة اليه كبيرة .

وفضلا عن هذا فان عدد الأعضاء المسلمين فى مجلس الشعب.، وعــو البرلمان ، يبلغ أربعين عضواً ٠

على أن النظام ، قد ذهب فى الذكاء الى ابعد من هذا ، فقد أنشأ فى بكين معهدا اسلاميا ، لم يبدأ عمله آلا فى نوفمبر من العام الماضى « ١٩٥٥ » ومهمته تثقيف المسلمين واعداد الأئمة ، وجميع طلابه من القوميــــات التى تدين بالاسلام ٠

وفى المعهد عدة دراسات ، فالدراسة العادية فيه للطلاب المسلمين ، مدتها أربع سنوات ، وهناك دراسة دينية خاصة للكبار مدتها ستة أشهر ٠

وبرغم أن بالمعهد الآن ١٢٠ طالبا ، الا أن البرنامج موضوع لكى يصل العدد الى ٥٠٠ طالب ٠

والمعهد تحت اشراف الجمعية الاسلامية فى الصين ، وهى التى تقــــوم بالانشاءات ، والمساعدات ، والانفاق عليه ٠

ولكى نتصور مدى أمكانيات هذه الجمعية ، نذكر أن طلابه يعفــون من ثمن المأكل والملبس والكتب ، ويتقاضون بعد هذا ٢٢ يوانا فى الشــهر ، مصروفا خاصا ، وهو مايعادل ثلاثة جنيهات ونصف تقريبا ٠

وطلبة القسم العام من القومية الاسلامية المعروفة « بالخوى » وهــــو قسمان قســـم ثانوى وآخر للمعلمين ، ومجموعة طلابه ١٦٨٥ ، منهم ٦٦٠ طالبة ، يكون ٣٩٫٢ ٠/٠ من مجموع الطــلاب ٠٠٠ ومن هؤلاء ٩١٧ طالبا بالقسم الداخلى ٠

ولكن نتبين طبقات المسلمين فى الصين ، ترجع الى أولياء أمور طــلاب المعهد ، فنجد أن ٢١ ٪ منهم من ابناء موظفى الدولة و١٦ ٠/٠ من ابنــاء الفلاحين و١٥٫٥ ٠/٠ من ابناء الطبقة العاملة و٢٪ من أبناء جيش التحرير و٤٧ ٠/٠ من أبناء الطبقات الأخرى ٠

وفى المعهد ١٤٠ استاذ ومدرس وموظف منهم ٧٦ أعضاء هيئة التدريس

١٤ منهم يدرسون الدين الاسلامى واللغة العربية ، وبهذا يصبح لكل ١٦ طالبا مدرس !

وفى مكتبة المعهد الآن ٥٠ الف مجلد ، وبه ثلاث معامل للـــــكيمياء والطبيعة وعلم الأحياء ، كما أن به متحفا ٠

هذا غير الملاعب الواسعة ، والمساكن والمطاعم والنوادى ، مما يجعـــل مساحته ٨٣٥٠ مترا مربعا ٠

ولعل هذه النفقات الواسعة التى تنفقها الجمعية الاسلامية على المعهد ، ليست هى كل نشاطها ، فلها غير هذا المعهد أبواب أخرى كثيرة ، تنفـــق عليها أيضا ، مما يقوم دليلا على قدرتها وقوتها وضخامة امكانياتها ٠

وقد سألت المسئولين فى الجمعية عن مواردها ، فعلمت أنها اساسا من الدولة ، وان كان المسلمون القادرون يدفعون لها بعض التبرعات ٠

* * *

فاذا ماتركنا المسلمين الى سواهم من الاديان الأخرى ، وجدنا القـاعدة مضطردة ، فللبوذية معابدها ، وللمسيحية كنائسها ،وللتاوستية معابدها وللأديان الأخرى وهى كثيرة ، أماكنها ودور عبادتها كذلك ٠

وقد زرنا معبدا بوذيا فى كانتون ، ووجدنا الكهنة يباشرون صـلواتهم أمام الآلهة المذهبة ، على دقات الطبول ، وخلفهم عدد من البوذيين ساجدين فى تبتل !

وزرنا معبدا بوذيا فريدا ، أقامه كاهن هندى فى بطن الجبل فى مدينة « هانشاو » واطلق عليه « باب السماء » ٠٠ والمعبد عبارة عن تجويف داخل الجبل ، وفى أعلاه ثقب صغير مفتوح ، تستطيع أن ترى منه السماء وأن ترسل الدعوات ، فتصعد من هذا الثقب مباشرة الى السماء !

كما رأينا معبدا للتاوست فى « هانشاو » أيضا ، فى مكان جميل ، تفننت الطبيعة ويد الكهنة فى احاطته بالصخور والاشجار ٠

ودخلنا معبدا آخرا للبوذيين فى « هانشاو » فوجدنا آثار تحطيم فى الجدران ، وفى الآلهة نفسها •

وقيل لنا ، ان البوذيين كان لهم ثلاث آلهة مذهبة ضخمة فى صدر المعبد ولكن اثنان منهما سقطا ••• ربما شهيدين ! للعجز والشيخوخة ! فلم تعبأ الحكومات الرجعية السابقة بأصلاح المعبد ،واعادة الألهين الساقطين•• ولكن حكومة التحرير » بدأت فأصلحت المعبد ، وهى فى الطريق الى إعادة الالهين الساقطين ، الى مكانهما من صدر المعبد !

أى ذكاء ، وأى بعد نظر ؟

بهذا ضمن النظام القائم فى الصين ، مسالمة رجال الاديان ، كما ضمن لنفسه راحة البال !

* * *

ان مجموع أصحاب الديانات فى الصين، لايتجاوز بحالما ، عشر تعداد الصين كلها فالمســـلمون عشرة ملايين ، والـــكاثوليك ثلاثة ملايين ، والبروتستانت ٧٠٠ر٠٠٠ ، والتاوست عشرة آلاف •

أما البوذيون ، فليس لهم احصـــاء محدود ، ولـكن اذا عرفنـا أن عدد رهبانهم ٤٥٠ر٠٠٠ وعدد راهباتهم ٢٤٠٠ ، واذا طبقنا القاعدة العامة بين المسلمين ، وهى أن لكل مائة مسلم امام ، على البوذيين فى الصين ، خرجنا بأن عدد البوذيين هو حوالى أربعين مليونا •

وباضــــافة قلـة متناثرة من أصحاب الـديانات الأخرى ، القريبة من البوذية يصبح أصحاب الديانات جميعهم ، فى حدود ستين مليونا ••

وهذا عشر التعداد العام للصين •

وقد كان النظام الجديد من الحكمة ، بحيث استرضى هذه الأقلية الدينية، ضمن من استرضى من أقليات أخرى ، قومية ، واقليميـة ، وســياسية ، واجتماعية ، واقتصادية ، تحقيقا لوحدة الأمة ، وضـمانا لتأييد هــذه الأقليات لسياسة الدولة الجديدة •

ونجحت هذه السياسة نجاحا كبيرا ، ولعل أول مظاهر هذا النجاح ، هو أن أصحاب الديانات في الصين ، لا يحسون أن بينهم وبين نظام الحكم خصومة ما .

هم راضون عن النظام ، مرتاحون الى مساعداته لهم .

والنظام راض عنهم ، مرتاح الى تأييدهم له .

واذن فلا ضير أن يكون للمسلمين مطاعمهم ومشاربهم حتى في مطاعم الدولة ، كما أن لهم مساجدهم وأئمتهم .

ولا ضير أن يكون للبوذيين مطاعمهم ومشاربهم ، حتى في المدارس والجامعات ، كما أن لهم معابدهم ورهبانهم .

وكذلك الحال بالنسبة لأى دين آخر .

العبرة هي أن هذه الأديان ، لا تعوق سير النظام ، ولا تعطل برامج الحكم ، سواء في ذلك البرامج السياسية أو الاقتصادية .

والعبرة هي أن اصحاب الديانات لا يقفون في طريق القافلة ، ولا يخلقون المتاعب لها .

وفي مقابل ذلك ، يعطى النظام كل التسهيلات لأصحاب الديانات ، ويجاملهم ، ويعلم شبابه أساليب هذه المجاملة .

ولقد سمعت في كثير من المناسبات ، من شباب الصين الديموقراطي ، وهو يعد اعدادا اشتراكيا خالصا ، أنهم يحترمون الأديان ، وان لم يكن لهم دين .

وقال لي السيد « تنج تو » رئيس اتحاد الصحافة ، وهو في الوقت نفسه رئيس تحرير جريدة الشعب اليومية ، لسان حال الحزب الشيوعي

الصـينى ، انه قرأ القرآن عدة مرات ، ووجد فيه عدالة اجتماعية لا نظير لها ، كما وجد فيه من عناصر التكافل الاجتماعى ، والتقارب بين الطبقات ، ما جعله ينظر اليه والى تعاليمه نظرة عالية .

بل لقـد ذهب السيد « تنج تو » الى أبعد من هذا ، فأكد فى خطب رسمية له ، فى الحفلات الرسمية التى أقيمت لنا ، أنه يجد فى الاسلام من المبادىء والأسس ما يكفل للمسلمين ، تحقيق مجتمع حر عادل كريم .

هذا كلام الرجل الذى ينطق بلسان الحزب الشيوعى ، ويرأس تحرير جريدته ، ويدير دفة اتحاد الصحافة فى الصين .

والمعروف عن السيد « تنج تو » أنه قليل الكلام ، ولكنه اذا ما تكلم ، فانه يعنى ما يقول .

وأذكر أنى قلت فى مناسـبات عديدة ، فى خطب عامة ، أن الاسلام دين متطور ، وأن مصر كدولة مسلمة ، تجد فى دينها أكثر من دافع يدفعها الى التطور .. بل الى الثورة على الاستعمار ، والاسـتغلال ، والاحتكار ، والتحكم .

وقـد ثارت مصر فعـلا على هذه العنـاصر جميعها ، فتخلصت من الاستعمار ، ووضعت قانون الاصلاح الزراعى ، لتتخلص من الاستغلال ، وهى قطعا سائرة فى طريقها للتخلص من الاحتكار والتحكم .

وأضـفت الى هـذا أنـكم اذا أردتم أن تفهموا سياسة مصر الخارجية ، فادرسوا طبيعتها ، وتربتها وحضارتها القـديمة .. ودينـها كذلك .. حينئذ تدركون لماذا تتمسك بالحرية ، وبالسلام .. لنفسـها ، وللعـالم جميعا .. أن تحية ابنـائها سلام ، وغضـبة أهلها على العـدوان ، أى عدوان .

قلت هذا الكلام فى الجمعية الاسلامية الصينية ، وفى حفــل توديــع البعثتين التجارية والثقافية الى مصر ، فى النادى الدولى فى بكين ..

وقوبل هذا الكلام بالتصفيق والتهليل .

وكان فى مقدمة من هنأنى عليه ، هؤلاء الذين ليس لهم دين ، وان كانوا يقولون انهم يحترمون الأديان !

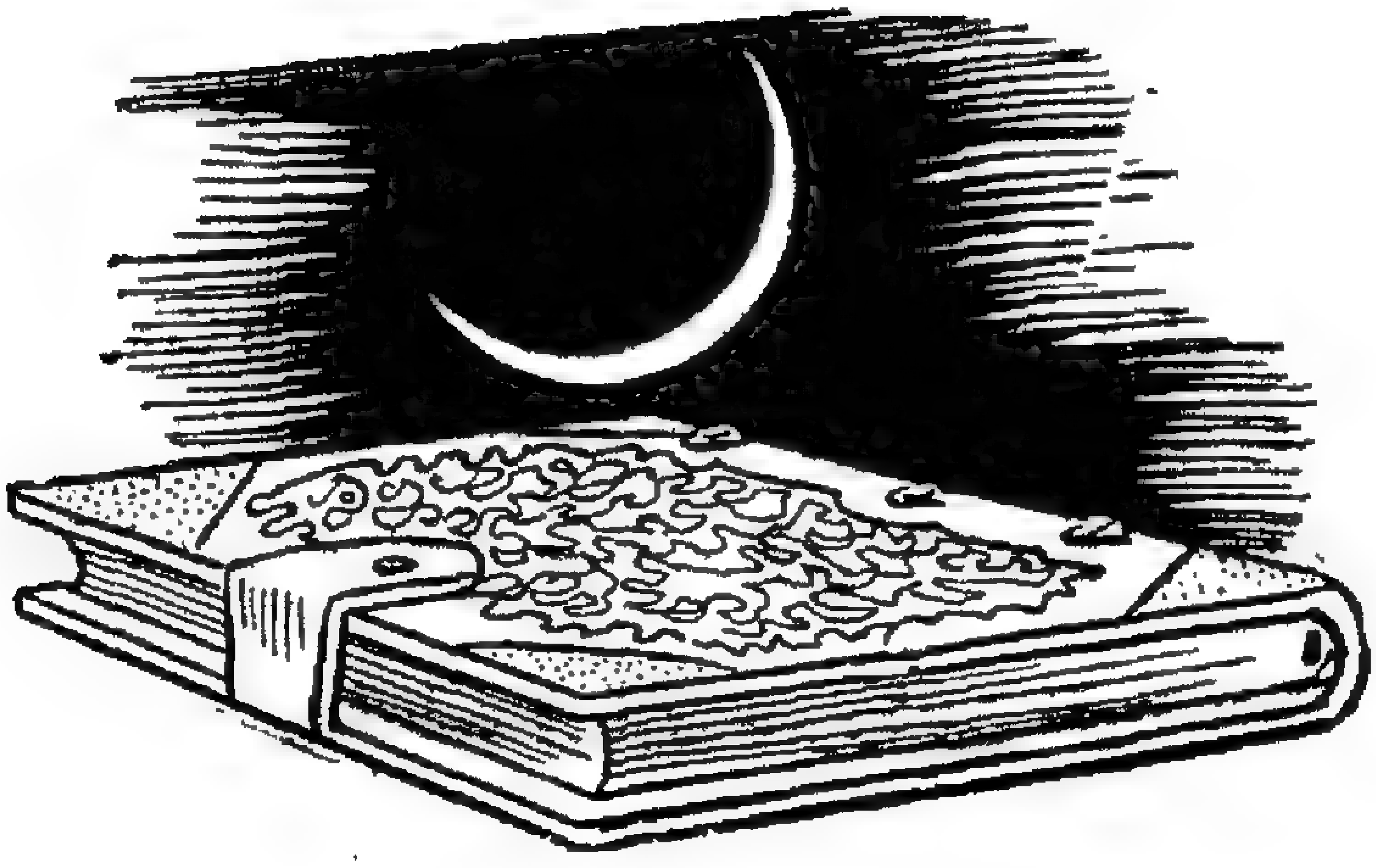

من الخير أن استكمل صـــورة « كانتون » ، طالما هي مدخل الصـــين الجنوبى ، وطالما هى قد لعبت هذا الدور الهام فى تاريخ الصين ٠

لقد بدأنا فى كانتون نسمع ألفاظ : « **ما قبل التحـــرير وما بعـد التحرير** » ، تتردد على ألسنة المرافقين لنا ، والمسـئولين الذين تقابلهم ، وأمناء المتاحف والمكتبات ، والفنانين والرياضيين ٠

وبدأنا فى كانتون نشعر بحماسة أبناء الصـــين ، واندفاعهم فى سبيل بناء الدولة ٠ وتوفير الحياة السعيدة لكل مواطن ٠

وبدأنا فى « كانتون » نعيش فى جو تتردد فيه كلمــــة « السلام » ، فبين كل كلمة وأخرى تتكرر هذه الكلمة ، فى حماسة وقوة ، كما تتكرر كلمات « **الشعوب الصديقة الراغبة فى السلام** » و « **المعايشة السلمية بين الأمم** » و « **التعاون المتبادل ، والفهم المتبادل ، من أجل سلام عالمى لا تهزه الأحداث ٠٠** » وغير هذا وذاك من جمـــل وعبارات ، تكاد تتوقعها ، فى مناسبات معينة ، وفى مواطن معينة ، قبل أن تنطق بها الالسنة !

على أن « كانتون » ، أعطت لى أول صورة عن الحياة العادية فى الصين ،

ولعل قوة هذه الصورة يرجع الى أن آخر ما شهدته من العالم قبل أن أصل الى الصـــين ، هو منطقة « هونج كونج » ٠٠

وأنا لا أبالغ اذا قلت أن « هونج كونج » تعتبر ســــبة فى ضمير الخلق الانسانى ، وبصقة ضخمة فى وجه الاستعمار ، شأنها فى ذلك ، شــــأن جميع المستعمرات ، أينما تكون ، وأيا يكون المستعمر ٠

ان « هونج كونج » تمثــل عالم الرشوة فى أبشع صورة من صوره ٠٠ كما تمثــل أحط فلسفة يمكن أن ينزل اليها الانسان ٠

فلسفة التصيد ، والاصطياد .

فلسفة الانتهازيين ، الذين يعيشون على الفرص ، ويتخذونها وسيلة الى شىء واحد .. الكسب والثراء ..

ان الفرصة فى حياة « هونج كونج » ، تلعب دورا هاما جدا فى حياة الناس ، وتفكير الناس .. فهم يتراصون انتظارا لها .. فيها كسبهم ، وفيها خسارتهم .. فيها حياتهم ، وفيها فناؤهم ..

والفرصة عندهم مطلقة من كل قيد ، لا تحدها حدود ..

اذا واتت انتهزوها واستغلوها ، بشرط واحد ، هو أن تكون نتيجتها كسبا ما .. وسواء كانت الفرصة شريفة ، أو غير شريفة ، فاضلة أو غير فاضلة ، خيرة أو شريرة .. كل هذا لا يهم .. المهم فيها ، هو نتيجتها .. هو ما تسفر عنهمن كسب مادى محدد .

الفرصة هناك مصدر ثراء ، ومصدر شقاء .. تحقق للناس السعادة ، كما تخلق لهم المتاعب .. تثير فى حياتهم الآمال ، وتطوى نفوسهم على آلام .

لهذا عاشوا جميعا فى « هونج كونج » ينتظرونها ، وينتظرونها ، ويفلسفونها ..

فمثلا الناس عندهم ليسوا أكثر من فرص .. يجب أن يستغلوا الى أقصى حدود الاستغلال !

ومثلا الشباب ليس عندهم أكثر من فرص .. يجب أن يبذل الى أقصى حدود البذل .

وكذلك كل معنى ، وكل مدلول .. كلها ليست اكثر من فرص ، يجب أن تعطى ، فى سبيل المصلحة .

ولهذا تجد حياة « هونج كونج » متقلبة ، بلا نظام ، ولا قاعدة ٠٠ فهى أحيانا سريعة كالبرق ، خاطفة كالومض ٠٠ اذا ما لاحت الفرصة ٠٠ وهى أحيانا أخرى ، ثقيلة ، بطيئة ٠٠ كالموت !

الشوارع مضيئة ٠٠ والحركة مستمرة ٠٠ طول الليل ٠

والسيارات كثيرة فى الطرقات ، وبين كل ناد ليلى وآخر ٠٠ ناد ليلى ٠٠ يتوسطهما !

وتستطيع أن تعد السيارات التى تمر فى شارع من شوارع « هونج كونج » ، فتجد أضعافها شحاذين متسولين ، فى نفس النقطة التى قمت فيها بالعد ! يرهقونك بالسؤال ، ويحطمون أعصابك بالالحاح !

وهم ليسوا شحاذين فحسب ، ولكنهم شحاذون عند اللزوم ، يجرون عربات نقل الناس عند اللزوم ٠٠ قوادون أيضا عند اللزوم !

هم يريدون أن يقنعوك بالعطاء ٠٠ بأى ثمن يكون هذا العطاء !

فاذا ما أدرت ظهرك ، فان منظر النساء سيثير العجب فى نفسك ٠٠

فى هذا الجو البارد ، وهذا الهواء اللافح ، ترى ملابس النساء مشقوقة من ناحيتين ، كل شق يقابل الساق تماما ، ويمتد هذا الشق فى كثير من احيان الى أعلا الفخد !

والهواء العنيد ، يعبث بهذه الملابس ، فيحيل منظر النساء ، الى راقصات ، عاريات ، فى كاباريهات !

هذه هى المرأة الصينية فى « هونج كونج » ٠

وهذه هى صورة آخر مجتمع غادرناه الى كانتون ، اول مدن الصين الجنوبية ٠

فتــــاة هونج كونج تتسكع ... بينما فتاة كانتون ...

وتجد نفسـك فجأة ، فى أرض الصين ، أمام نساء ، يرتدين البنطلون الأزرق ، والجاكتة الزرقاء المقفلة ، دون مساحيق ، ولا عطور ، ولا زينات .
وتجد نفسـك فجأة ، أمام نسـوة تكلمهن فيجبن كالرجال .. دون أن يأخذن كلامك على أنه معاكسات ، وما يستتبع المعاكسات عادة ، من دلال واغــراء .

وتجد نفسك فجأة ، أمام شوارع قلما تمر فيـــها سيارة خاصـــة ، والجميـــع اما ســـائرون على الأقدام ، أو مستقلون الترام ، أو راكبون « الترولى باس » أو على بسسكلتات خاصة ، أو عربات تقودها بسكلتات ٠

لا متسكعون ، ولا متسكعات ٠

لا حفاة ، ولا حافيات ٠

صحيح أنت لاتجد ناعمـــين أو ناعمـــات ، رافلين أو رافلات فى حرير ، ولكنه صحيح أيضا أنك لاتجد الجثث الآدمية ، ملقاة على أرصفة الطريق !

وكانت النقلة سريعة ، فأثارت فى نفسى أكثر من احساس ، أهمها أنى تســاءلت : **كيف تم هذا ؟**

ربما أخطأت فى الســؤال ، فان هذا من الممكن أن يتم حتى فى الدول الرأسمالية الاستغلالية ، الاحتكارية ٠٠ أما ان يتم ، والثــورة الصينية لم تقطع بعد من عمرها الا سنوات معدودات ، فقد كان هذا هو السؤال ٠

هل تغــير الناس ؟٠٠ وكيف ؟

وتركت الاجــابة عمـــا راودنى من تســاؤل ، لبقية زياراتى للصين ٠٠ لعاصمتها بكين ، وبقية الأجزاء التى ستتضمنها برامج الزيارة ٠٠

* * *

لقد زرنا فى كانتـــون معهد الفلاحين ، وهو المعهد الذى أسسه الحزبان ـ الكومنتاج والشيوعى ـ فى سنة ١٩٢٣ ، وكانا قد تحالفا ، على أثر البيــانَ الثنائى ، الذى أصدره الدكتور صن يات صن ، مؤسس حـزب الكومنتاج وزعيمه ، والرفيق جوف مندوب روسيا السوفيتية ، فى يناير سنة ١٩٢٣

وقد نص هـــذا البيان على أن الدكتور صن يات صن يعتقد أن النظام الشيوعى ، أو حتى النظام السوفيتى ، لا يمكن أن يطبق فى الصين ، لأن ظروف الصـين لا تسمح بقيام الشيوعية ، أو التجربة السوفيتية فيها ، ويشاطره هذا الرأى الرفيق جوف تماما ، وهو يعتقد أن مشكلة الصـين الاولى هى تحقيـــق وحدتها واستقلالها التـام ، وهى المشكلة التى أكد الرفيق جوف للدكتور صن يات صن عطف الشعب الروسى العميق نحوها ، حتى لتستطيع الصـين أن تعتمد على تأييد روسيا فى تحقيقها .

وقد أعقب هذا البيان ، أن أخذ الشيوعيون الصينيون ، ينضمون الى حزب الكومنتاج ، وينظمون أنفسهم فى تشكيلاته الثورية ، لتقوم الثورة ، ولتنجح ، ولتـؤد الى نتـائجها وهى وحدة الصـين ، واستقلالها استقلالا كاملا .

وكان لابد من اقامـة نوع من التنظيم العلمى ، لاعداد الريف الصينى اعدادا ثوريا خاصا ، يؤدى به الى المشاركة فى اشعال ثورة لا تنتكس ، ولا تتراجع ، حتى تحقق غاياتها .

عندئذ ، اقيم معهد الفلاحين فى « كانتون » ، ليقوم بجوار كلية هوامبو الحربية الثورية ، على تنسيق الوعى الثورى ، وتهيئة القرية الصينية ، لتكون وحدة مستقلة ، كاملة الاعداد ، للاشتراك فى الثورة .

ورأس المعهد ماوتسى تونج ، رئيس الحزب الشيوعى الصينى فيما بعد ، وزعيم الثورة ، التى نجحت فى سنة ١٩٤٩ نهائيا ، وبدأت تحكم الصين .

وانضم الى المعهد ٣٢٧ طالبا ، تخرجوا على ست دفعات .

وقد بدأت التجربة بتدريب فلاحى المقاطعة التى تتوسطها كانتون على الثورة واعدادهم علميا وفنيا لحمل الأمانة الشاقة التى سيقومون بها ..

ثم خطا القائمون عليه خطوة أخرى ، فوسعوا دائرته ، ليكون معهـدا قوميـا عاما ، يضم بين جدرانه طلابا من جميع المقاطعات ، بحيث ينتشر الوعى الثورى وتتسع دائرته بين أنحاء الصين جميعها .

على أن المعهـــد توقف عن الدراســـة سنة ١٩٢٦ ، كما توقفت الكلية الحربية أيضـــا عن الدراســـة فى نفس العـــام ، اســـتعدادا لقيام ثورة الكومنتاج فى ذلك العام ·

ونجحت الثورة ·· نجحت فى السيطرة على الصـين ، واقـامة حكم الكومنتـــاج ، ولكن هـــذا النجاح كان جزئيا ، لأنه سرعان ما قام انقسام جـديد ، داخل حزب الكومنتاج نفسه ، فوقف تشـــانج كاى شيك فى أقصى اليمين ومعه أنصاره ، ووقف الجناح الآخر فى أقصى اليسار ، ومعه الشيوعيون المتحالفون معه ، وثارت المـذابح ، والفتن ، والانقسامات ، والحروب الأهلية ، ولم تهدأ الصـين بعـدها أبدا ، حتى سنة ١٩٤٩ ، حيث انتصرت الثـورة ·

ومعنى هذا أن معهد الفلاحين فى كانتون ، توقف من سنة ١٩٢٦ ، ولم يفتح أبوابه لطالب حتى اليوم ·

وبعد انتصار الثـورة ، أصدرت الحكومة قرارها باعداده ليكون متحفا حيا ، يروى حقبة نارية ، من حقب التاريخ الثورى للصين ·

هـذا هو المعهد الذى زرناه فى « كانتون » ، وهو المعهد الذى تعتبره هذه المدينة الصينية أحد مفاخرها الكبرى ·

ان أبنيته لا تزال كما هى ، تحمل الطابع الصينى القديم ، ذى السقف الهرمى ، الملون بألوان « الصينى » البراقة الأخاذة ··

ولعل بساطته ، هى أكثر ما يثير فيه ·

ان الفواصل الخشبية المتواضعة بين حجراته ، والمقاعد الصغيرة الجافة من الخشب ، والمكاتب الصغيرة الكالحة ، والموائد المستديرة للاجتماعات ، وحجرات المدرســين ، وقـد تركت فوقـها أدوات الشاى ، التى كانوا يستعملونها ·· والشمعدانات ·· والمحابر ، والأقلام ··

كل هذه المخلفات البسيطة المتواضعة ، تتحدث وحـدها ، فتطيـــل الحديث ، فى همس أقرب الى النجوى ، وخفوت أدنى الى الاسراء ·

هنا مكتب العميد والخبير العسكرى .. حجرة خشبية جافة ، يفصلها ن الحديقة جدار لا يتصل بالسقف ، وانما ينفصل عنه مسافة طولها والى نصف متر ..

وفى الحجرة مكتبان متجاوران بينهما ممر بسيط .. ولا شىء .

وهنا مكتب المدير .. حجرة خشبية مماثلة ، وليس فيها الا المكتب لكالح القديم ، وعليه أدواته الكتابية المتواضعة .. يقابله سرير خشبى ، تديم مغطى بحصير .. ثم صندوق من الخشب .. للملابس .. ولا شىء .

هنا كان يعيش ماوتسى تونج ، وكان يعمل ، وكان يلهم .

هنا بدأ النشاط العلمى التطبيقى ، للرجل الذى يحكم الآن الصين الجديدة .

وهذه قاعة المحاضرات الكبرى ، حيث كان يحاضر ماوتسى تونج ، وشو اين لاى ، وهومويو ، وليفوتشى ، وغيرهم من الأساتذة ، والكتاب ، والفلاسفة ، والضباط .

وترى السبورة ، وترى خريطة الصين ، كما كانت وقتها ، منذ أكثر من ثلث قرن .

وهذه قاعة الطعام .. الموائد المستطيلة والمستديرة والمربعة ، وحولها الكراسى الخشبية الصغيرة المتنقلة ..

هذا ركن المسلمين .. وهذا ركن البوذيين .. وهذا ركن التاوتست .. وبقية القاعة لبقية الطلاب ..

وهنا كان يعيش الطلاب .. عنبر طويل ، أقيمت فيه الأسرة الخشبية طابقين ، والدواليب الصغيرة للملابس ..

وترى فى مواجهتك الأسلحة القديمة التى كان يتدرب الطلبة على

استعمالها ، استعدادا لليوم المشهود ، حيث يدق الناقوس ، فيهرع الجميع يلبون نداء الثورة ، ضد الاستعمار ، وضد الطغيان •

والمكتبة ، وحجرة الاستذكار •• ثم مساكن الطلاب ، رؤساء القوميات المختلفة •

وممر طويل رهيب ، وضعت فيه صور الأساتذة الذين حاضروا فى المعهد •• بينهم طبعا ماوتسى تونج ، وشو اين لاى ، وآخرون وأخريات ، مات منهم من مات فى ثورات الكفاح ، وبقى منهم من بقى ، يتحمل المسئولية بعد نجاح الثورة •

والحديقة الصغيرة الأنيقة ، وجدول الماء الذى فيها ، والكوبرى الذى يعلوه •• هنا كان ماوتسى تونج ، يسير مع تلاميذه ، يتابع معهم فى أوقات الفراغ ، ما يكون قد فاتهم فى قاعات الدرس •

وفى كانتون قاعة تذكارية لصانع الثورة الصينية الأول ، الدكتور صن يات صن ، ابن كانتون الخالد فى تاريخ الصين •

وقد أقيمت القاعة فى نفس المكان ،الذىاعتاد فيه الزعيم الثائر ، أن يقف فيه بين الجماهير ، يحدثهم عن ظروف الصين ، ومطالبها ، وطموحها الى حياة حرة مستقلة موحدة •

والقاعة فسيحة تتسع لخمسة آلاف شخص ، وقد أقيمت من تبرعات الشعب ، الذى أصر على أن يخلد ذكرى الرجل ، فى المكان الذى نشأت فيه فكرته الثورية ، بين طبقات الشعب المختلفة •

وقد استغرق بناء هذه القاعة عامين ، من عام ١٩٢٩ ، حتى عام ١٩٣١

وحول القاعة حديقة جميلة بارعة ، وأمامها تمثال كبير ، بالحجم الطبيعى للزعيم الثائر ، فى وقفة خطابية هادئة ، وقد ارتدى الملابس الأوربية الحديثة •• والتمثال مقام فى المكان نفسه الذى اعتاد صن يات صن أن يقف فيه من جماهيره وأعضاء حزبه •

وفى كانتون أيضا مقبرة لشهداء الثورات المختلفة ، عددهم اثنان وسبعون شهيدا ، أقيمت لهم مقبرة واحدة بسيطة ومتواضعة .. فهى تعدو أن تكون قبة كبيرة ، منخفضة ، تحت مستوى النظر ، وحولها سور أعلا منها بقليل ، فوق هضبة أقيمت فيها حديقة واسعة غناء .

وخلف المقبرة عدة أقواس نصر تذكارية من الرخام .. أهداها جميعها الى الثوار ، أبناء الجاليات الصينية ، خارج الصين .

وقد رأيت واحدة منها مهداة من الجالية الصينية ، فى أمريكا الجنوبية ، وأخرى من الجاليات الصينية خارج الصين عموما .

وفى الحديقة تماثيل مختلفة للمشهورين من هؤلاء الشهداء .. وقد رأيت تمثالا لقائد بحرى كبير ، كان قد انضم الى الدكتور صن يات صن فى كفاحه ، وأخذ يعاونه فى الاعداد للثورة .

على أى حال هذه كانتون الأمس ... أو كانتون التاريخ ... وهى قطعا ليست كل كانتون .

أما الصورة الحية لكانتون اليوم ، فيكونها جوها الصحو ، ومناخها المعتدل ، وخصوبة تربتها ، وقربها من العالم الخارجى ، واختلاطها بالاجانب مما أثر فى أبنائها ، وجعلهم من أكثر الصينيين تعلما للغات ، واتقانا لها .

وهذه العناصر جميعا تتآلف ، لتكون لأهالى كانتون ، مزاجا خاصا ، فيه سماحة ، وسعة أفق ، وميل للدعاية ، ووعى وفهم وتقدير .

وأنت اذا سرت فى شوارع كانتون ، وجدتها واسعة نسبيا فسيحة نظيفة ... والنظام عنصر هام من عناصرها ، شأنها فى هذا شأن بقية مدن الصين .

ومن ميزات أهالى كانتون ، أو أولاد البلد فى كانتون ، أنهم يرتدون القبقاب الخشبى ويطرقعون به على أرصفة الشوارع ، غادين ورائحين ...

ذلك لأن إعتدال جو كانتون ، يجعل الناس أكثر تحررا فى ملابسهم من سكان المناطق الباردة .

ولهذا فان فنادقها وبيوتها ، ليست معدة بالمدافىء ، فتجدها كما تجد البيوت فى مصر ، أبرد من الطرقات والشوارع !

وقد قال لى نائب رئيس اتحاد الصحافة ، أن أبناء الشمال يعتبرون كانتون ، أبرد من مدنهم ، لأن فنادقها وبيوتها ليست معدة بالمدافىء التى اعتادوا عليها فى الشمال ! ..

ويعيش المليونان من الصينيين الذين يسكنون كانتون غالبا على الزراعة والتجارة وخيرات البحر ، فالصناعة فيها ليست فى الدرجة الأولى .

وفى كانتون صحيفتان يوميتان ، غير الصحف الأسبوعية والمجلات الدورية والفنية ، وعدد أعضاء اتحاد الصحافة فيها يبلغ حوالى خمسمائة عضو .

وقد زرنا متحف المدينة .. وكان قبلا قلعة من القلاع الحربية .

ووجدنا المتحف حريصا على أن يضم التاريخ الصينى القديم ، بجوار التاريخ الحديث .

فبجوار الآثار التى مضت عليها قرون طويلة ، وجدنا آثار الثورة ، وصور شهدائها .

والى جانب النقوش القديمة ، على الفخار ، « والصينى » وقطع القماش الحريرية ، وجدنا منشورات الثورة ومطبوعاتها على سنوات طويلة ، من سنوات الكفاح .

وبينما يعرض المتحف ساعات الماء ، وأبراج الزمن النحاسية القديمة ، نجده يعرض ما عثر عليه من ملابس الشهداء الذين سقطوا ضحايا الغدر أو الخيانة أو وحشية الاستعمار .

وفى الوقت الذى يوضح فيه المتحف مخلفات عصر الأفيون ، يصـور للزائر حرب الأفيون ، وطريقة محاربته ، حتى زال من جميع انحـــاء الصـــين .

وفى الجملة يروى متحف كانتون تاريخ الصين ، منذ عصور ماقبـــل التاريخ ، الى العصور الامبراطورية المختلفة ، الى تطورات الحركات الشعبية وطرق المقاومة ، وزعماء حركة الـكفاح ، والاسـلحة التى اسـتخدمت فى محاربة أعداء البلاد ، مستعمرين كانوا أو رجعيين ..

ويختتم المتحف قصة الثورة ، بآخر فصولها : النصر .

وقد وجدت العناية واضحة جدا بنظام المتاحف ، خاصة فيما يتصـل يشرح تفصيلاتها للزوار ...

لقد تصادف أن زرنا متحف كانتون ، يوم احد ، فوجدنا زحاما شديدا داخل المتحف .. شبان وشابات وجنود .. شيوخ وأمهات وأطفال ... والعناية بالجميع واحدة ... ما أن يدخل عدد من الزوار ، حتى يسرع اليهم موظف مختص ، يصحبهم من الطابق الأول ، حتى الطابق الرابع ، شارحا كل قسم ، مقدمما تفصيلات كل ركن ، مجيبا عن كل سؤال .

ويقع المتحف على هضبة جميلة ساحرة ، وبين حدائق واسعة بديعة .. يشرف على مدينة كانتون اشرافا كاملا ...

وامام المتحف مباشرة عمل رائع .

أستاد منحوت فى صخور الجبال !

ماهى الا فجوة بين صخور الهضاب ، نظمت ورتبت ، وتحولت الى استاد رياضى مفتوح ، يتسع لخمسين الف شخص ، يستطيعون بسهولة أن يتابعوا أية مباراة ، من أى ارتفاع يكونون عليه .

انها تجربة جديرة بالاحترام ، لأنها استغلال طيب للطبيعة .. ولو كانت صخرية ، ملتوية ، عاصية !

ويتلوى بنا الطريق ، فيدور الى يمين ، ثم الى يسار ••• وينحدر فجأ حتى لتكاد السيارات تنكفىء ! •• ويظهر لنا حمامان كبيران للسباحة ، بين هذه الحدائق الغناء •

وفي منعطفات الحديقة ، وتحت كل بضعة أغصان متعانقة ، وفي الاركان والزوايا ، شبان وشابات ، يمارسون الحب ، برغم هـــذا الرداء الأزرق الخشن الذي قد يوحي اليك ، ان قلوب هؤلاء الناس ، قد قدت من حديد !

على ان في كانتون ضاحية قلما تجدلها مثيلا في مدن الصين الأخرى ، وهذه الضاحية تسمى ضاحية الجاليات الصينية خارج الصين •

وقد حرصت على ان أعرف قصة هذه الضاحية ، فقيـــل لى ، أن عددا كبيرا من أبناء كانتون ، اعتادوا على الهجرة الى خارج الصين ، والعمل هناك ومن هؤلاء من استطاع أن يكون لنفسه ثروة كبيرة ، ولكنهم ظلوا دائمـــا متصلين بوطنهم وأهليهم ، بل وشاركوا في كل حركة وطنية في الصين ، بالتأييد ، والتشجيع ، والدعاية ، والتمويل ، فلما استقرت الأوضاع في الصين ، واطمأنوا الى هذا الاستقرار ، فكروا في العودة الى بلادهم •

وقدمت الحكومة لهم الأرض ، وتعهدت بأن تبنى لهم منازل خاصـــة في هذه الضاحية ، في حدود مبلغ خمسة عشر الف يوانا تقريبا ، أى مايوازى الفين وخمسمائة من الجنيهات •

وأقامت لهم في هذه الضاحية مدرسة ، ومستشفى،وعيادة طبية ،وناديا وقامت برصف الشوارع ، وتهيئة جميع عوامل الراحة لهم •

وقد زرت هذه الضاحية ، فوجدت بعض الدور قد تم بناؤها ، وبعضها الآخر على وشك الانتهاء •

ودخلت منزلا من هذه المنازل ، فوجدته من طابقين ••• الأول مكونمن صالون للاستقبال ، وحجرة للمائدة ، ومطبخ ، وحجرة أخرى وحمام وبعض اللوازم الأخرى ••• والثاني يحوى أربع حجرات نوم وحمامين •

وحول كل منزل حديقة متوسطة ، فيها حظائر لتربية الدواجن .

هذا هو المنزل الذى تكلفه الدولة ألفين وخمسمائة من الجنيهات .

وقد وجدت بعض المنازل قد سكنت فعلا ، ودبت فيها الحيـــاة ، ووقف أطفال أمامها يلعبون .

* * *

هل هذا يكفى لتقديم المدينة الأولى فى جنوب الصين ؟ .. أن الصورة تكتمل ، مالم نعرض لحياة الليل فى كانتون .

كيف يقضى الناس أوقات فراغهم ؟ .. كيف يسترخون بعـــد عمل النهار ؟ .. كيف يتسلون ؟

والحقيقة التى يجب أن يعرفها الناس ، هى أن حياة الليل بالمعنى المفهوم ليست موجودة على الاطلاق فى الصين .

البارات الصغيرة المتناثرة هنا وهنـــاك ، ومافيهـــا ، ومن فيها ، من تسلية وناس ..

والكاباريهات الصاخبة المتوفرة فى مدن الدنيا ... باريس ، وروما ، وزيورخ ولندن ، ونيويورك ... ومافيها من متاع ، وتسلية ، وعـــوامل الأثارة بمختلف أنواعها ...

وصالات الرقص ، تمتلىء بالشباب من الجنسين ، وتسرى فيها أنغـــام الموسيقى كلذعات النار ، أو كوخز الابر .. فتترنح الأبدان ، حالمـــة ، نائمة ... تغفو على لذة ، وتصحو على متـــاع .. الفتى غارق بين ذراعى فتاة ... والفتاة تائهة بين النغم ، والخطو المترنح المتعب المكدود ، والفتى الذى يواجهها ، تارة يحاول أن يعتصرها ، وتارة أخرى يأبى الا أن يتبرك فيربت عليها ، كأنها ولية من وليات الله الصالحات !!

والتسكع ... التسكع المتحلل من كل قيد ، فى الشوارع ، والأزقـة ، والميادين ، والطرقات ، والحدائق ...

هذا التسكع ، ومايتخلله من معاكسات ··· وفرجة على خلق الله ··· أحيانا فى تمن صامت ، واشتهاء محروم ·· وأحيانا أخرى فى وقاحـة فى اللفظ والتصرف معا ·

ونساء الليل ·· الباهرات ، اللامعات ، المغريات ·· يعرضن أنفسهن لمن يريد ·· بالثمن ! ·· كما يعرضنها على من لا يريد ··· للفرجة !؟

وتجار السوق السوداء ، وما يعرضونه من الغرائب ···

هذا خاتم من الماس ·· والله من المــاس ! ·· مسروق الآن فقط ، من غانية كانت تسير ســـكرانة فى الميدان المجاور !! بثلاث جنيهـــات !! جنيهين !! لا لا ياسيدى ··· كان يمكن أن أضـــبط ، فأســجن عشر سنوات ! انه لا يقل عند الجواهرجى عن مئات الجنيهات ··· وأنا لا أبيعه لأى واحد ·· لابد أن أنتقى زبائنى ممن يفهمون ويقدرون ، وفى نفس الوقت لا يشون بى الى البوليس ·· جنيه ·· فقط !! عشرة شـــلنات !! قبلت ياسيدى ·· لأتخلص فقط من آثار الجريمة !!

وهذا آخر يعرض ساعة ذهبية ··· أو قلما من أحســن طراز ··· أو مجموعة صور ··· كلها عاريات ، وعراة !!

والجثث المخدرة ، الملقاة ساعات ، على أرصـــفة الشـــوارع ··· على المقاهى !

هذه الألوان من حياة الليل ، غير موجودة على الاطلاق فى كانتون ، وفى الصـين كلها ، بما فى ذلك « هانكاو » التى كانت فى يوم ما ، قلعـــــة الاستعمار ، والاستغلال ··· وبما فى ذلك شنغهاى ، التى عرفت على مــر السـنين ، بأنها مدينة الأفق ، والجريمة ، والليالى الداعرة ، والنســـاء الخليعات ··· والأفيون ·

فى الصـــين مسارح ، تعرض عليها أوبرات ، وتمثيليات ، واستعراضات ، وألوان شتى من « الأكروبات » ·

وفى الصين ... سـينمات ، تقدم فيها الروايات الطويلـة والقصـيرة ، والمنوعات ، من انتاج الصين ، وحلفاء الصين الشرقيين جميعا ، واليابان ، والهند ، وأندونيسـيا وبورما .

وفى الصين .. ساحات شعبية للهو المختلف الألوان .

وفى الصين ... نواد خاصة ... ومعنى خاصة هنا ، أنها تتبع المصانع أو المتاجر أو المدارس أو الجامعات ، وهى مخصصة للعاملـين فيهـا ... كما أن فيها نواد للأحياء ، ونواد عامة للشـباب .

ولنعرض لـكانتون بالتحديد .

لقد زرنا فيها ، فى ليلة من الليـالى ، حديقة للمبـلاهى ، فوجدنا فى المدينة ملاعب لكرة آلسلة ، وصـالات لتنس الطاولة ، ومكانا فسـيحا لألعـاب الأكروبات .

وشاهدنا مباراة بين فريق من طلاب المدارس الثانوية ومدرسـيهم ... وقد أخذنا نؤيد الطلاب ، ومن حسن الحظ ، أنهم انتصروا على المدرسين !

كما شاهدنا عدة مباريات فى تنس الطاولة بين لاعبى عدة مصانع .

كما وقفنا امام « الأكروبات » الصينى المعجز ، نتابع بعض الألعـاب التى تصـل آلى درجة الخيـال !

وفى ليلة أخرى ، زرنا حديقة أخرى للمـلاهى ، وكانت أفخم بكثـير من الحديقة الأولى ... مبانيها ، وأضوائها ، وطرقاتها ، ومتنـوعاتها ... كلها كانت أفخم بكثـير .

ووجدنا فيها مسرحا فى الهواء الطلق ، تعرض عليه ألوان الـرقص المختلفة ، كما تعرض قطع الموسيقى المنوعة ... وكذلك الأغانى .

ووجدنا فيها قسـما كاملا للأطفـال ... المراجيح ، والطائرات التى تدور حول نفسها فى الهواء ، والحيوانات الخشـبية ، يركبها الأطفـال

وهم يتصايحون ، والسيارات المطاط التى تتصادم فى عبث ضـاحك ٠٠٠ وغير ذلك كله من ألعـاب الأطفال ٠

وأهم من هذا كله ، وجدنا أهالى كانتون يزحفون نحو الحديقة ، فقد تصادف أن كانت الليلة ، ليلة الأحد ، ويقطعون تذاكر الدخول ، التذكرة بحوالى قرش صاغ أو ثلاثة تعريفة ٠٠٠ ولا شىء بعد هذا ٠٠٠

الرجال والنســاء والأطفال ٠٠٠ الجميــع ذاهبون للفــرجة واللعب والاســتمتاع ٠

* * *

ولنعد الى المسرح ٠٠٠ المسرح المقام فى العراء ، والهواء ٠٠٠ والمفتوح لأى طارق ، من عامة الشعب ٠

كذب أن أقرر أنه تقام عليه المناظر الفاخرة ، والديـكورات الباهرة !

وكذب أن أقول انه يعرض الدراما والأوبرا والـكونسـير ٠

والحـق أنه بسيط وفســيح ونظيف ٠٠٠ فى نصف دائرة ، ليمـكن مشاهدته من أى اتجاه ، والمكان الواسع الذى أمامه ، رصت فيـه مئـات الكراسى الخشـبية ، والدكك أيضا ٠٠٠ وكثـيرون من النـاس ، يقفون عندما تضيق بهم المقاعد والـكراسى ٠

والحق أيضــا ، أن هذا المسرح ، فى الهــواء ، والعراء ، يلتقى فوقه كبار الفنانين والفنانات ،يعرضون فنهم لمختلف الطبقات ٠

والحق أخيرا ، أن جمهـور المتفرجين ، ينصتــون ويتفرجون ، فى أدب وهدوء ، وتقديس للفن والفنان ٠

ولقد كان يجلس بجوارى فى هذا المسرح ، نائب رئيس اتحاد الصحافة فى كانتون ٠

وأخذ الزميل يشرح لى ، عن طريق المترجم ، هذه الألوان من المتنوعات .. هذه رقصة حديثة من مقاطعة السنجان ، وهذا عرض جيش التحـــرير ، وهذه موسيقى صامتة عن ليالى الكفاح ، وهذه أغنية وضعت أيام حـــرب الاستعمار اليابانى .

... ثم أجد نفسى أمام قصة .

تخرج مغنية ، فيدوى المكان بالتصفيق الحاد ..

وتحنى المغنية الشابة قامتها شاكرة هذه التحية ، فيصر المتفرجون على تحيتها أكثر من مرة ، ومرة ، ومرة ...

وأسأل فيقال لى : **انها مغنية مكافحة ، شهيرة جدا ، ولها قصة بطولة لا تنسى ...**

كانت تعيش على الضنك .. تأكل الجوع ، وتشرب العطش .. وتتسلى بالدموع ...

وماتت أمها جوعا ، وكذلك أبوهـــا ، فانضمت الى حركة التحـــرير ، وأخذت تتفنن فى وسائل المقاومة .. وعن طـــريق فنها ، استطاعـت ان تلهب المشاعر .

وضاقت الحكومة بنشاطها ، فسجنت ، وكانت قد تزوجت ، وكانت قد حملت ، وكان جنينها ينتظر اليوم الذى يولد فيه ، ليرى النور .

ولكن الاستعمار والرجعية ، لم يعبأ بهذا كله ، فوضعاها فى السجن ، تاركين زوجها تأكله الوحدة ، ويأكله الحقد ، خارج السجن .. فى سجن أكثر حلكة ، وأكثر عتمة ، وأغلظ جدارا .

وفى السجن وضعت طفلها .. وعاشت به عامين كاملين ، حتى انتصرت الثورة ، فحررتها ، وحررت معها الوليد الساذج ، الذى لم يجن ذنبا ، أو يقترف اثما .

وكانت تضحيتها ملهمة للفن الثورى ، ليضع عنها القصص ، يصـــور فيها الظلم ، ويروى وحشية الاستبداد •

وكانت هذه الاغانى ، التى تغنيها ، وتتحدث فيها عن مأساتها •

وما كاد الزميل يتمم القصة ، حتى كانت الأغنية قد انتهت ، فيشتد تصفيق الناس ، تحية للبطلة ، وللفنانة •

على أن التصفيق لا ينقطع •••

فان سيدة أخرى تدخل المسرح ••• سـيدة وسط ، فى نحو الأربعين وقد بدأت التجاعيد تعبث بوجهها •

ويقول الزميل : **وهذه مغنية أخرى مشهورة جدا هنا •• وهى منتخبـة عضوا فى مجلس الشعب ، لهذا الأقليم •**

وبين دوى التصفيق ، يقول الزميل : على أنها ستتمم قصة المغنية الاولى •• ستروى فى أغنيتها قصة الزوج خارج السجـن ، ولوعته على زوجتـــه ، ومأساته فى ولادة أبنه داخل سجـــــن لا يرحم •• ثم يناشد الناس أن يتجمعوا لينتصروا •

وتبدأ المغنية ، فى صوت كالدوى ، تروى القصة ، والناس مخدرون من فرط الأعجاب •••

لقد كانوا يعيشون فى ماض طويل ، ملأته محنة ، وأضاءه كفاح •

كانوا يستعيدون قصة صراع مضن ، اجتازوه فى صبر •

كانوا يذكرون المغنية الشـــابة ، فى سجنها ، ترضع وليدها ، الحقـد والكراهية ، والبغضاء ، لمن سلبوها حريتها ، وســـلبوا رضيعها حقه فى أن يرى النور •

وكانوا يذكرون الزوج المنكوب ، الواقف وراء الجدران ، ينادى ، فيرتد اليه نداءه أصداء ، ويصيح ، فتعود اليه صيحاته صماء !

وكانوا يذكرون أنفسهم ، وقد اخذوا يتابعون المأساة ، والحديد يقيد أنفاسهم ، والنار تصلى أرادتهم ، وسيف الظلم ممتد الى رقابهم ، يهدد مصائرهم ، ومصائر اسرهم .

ولا شك أن الذكرى كانت مريرة .. فهذه الوجوه المتجهمة ، وهذه الابصار الشاردة ، وهذه الأسماع المستغرقة .. كلها تدل على مدى المرارة التى تسربت الى الناس ، والمغنية ترسل صيحات من الاعماق .

وتنتهى المغنية .. تنتهى ، ليتردد فى المكان الفسيح ، رعد .. أو تصفيق .

بينما نتسلل نحن ، فى خشوع ... عائدين الى فندقنا ..

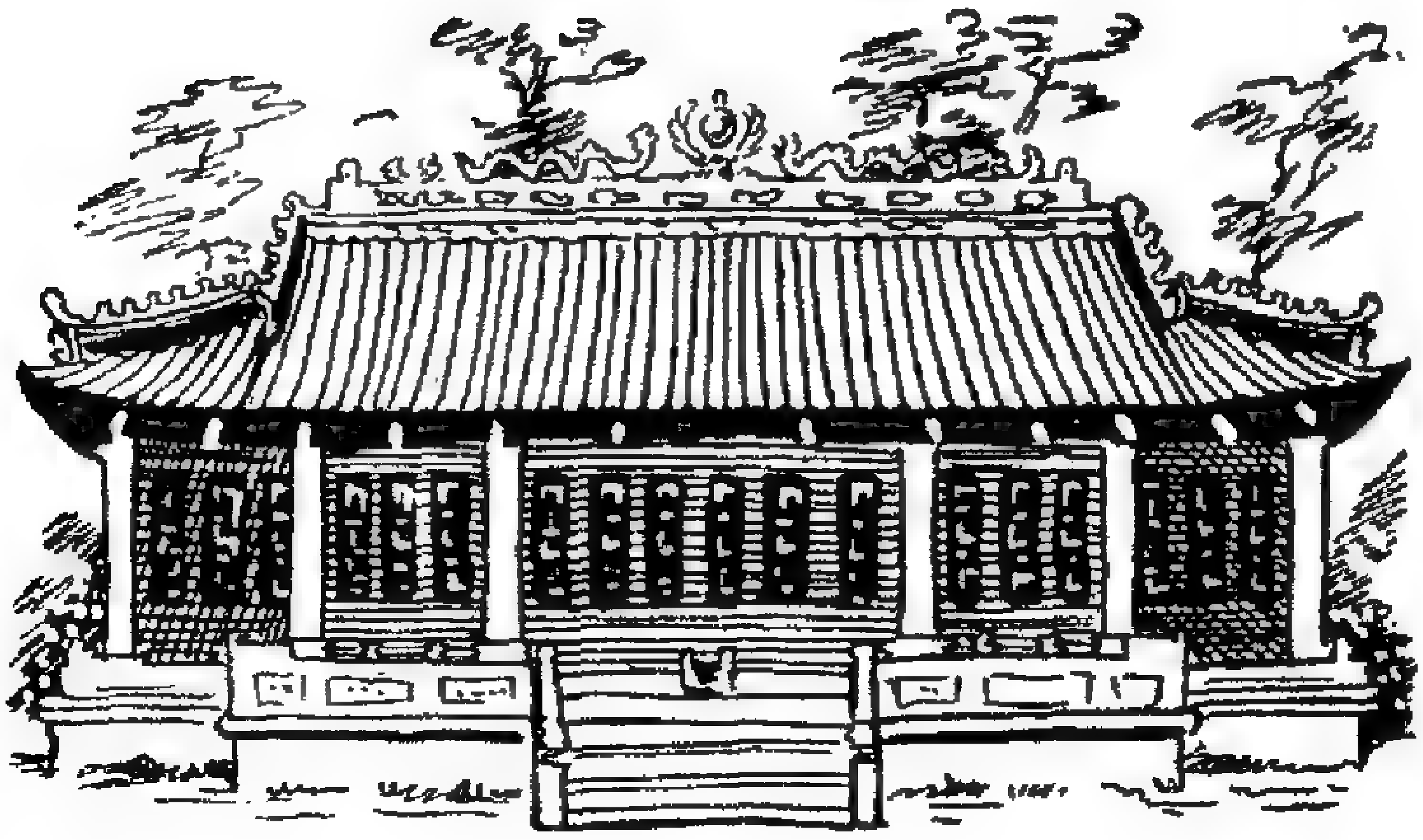

والآن ... ما هى الصين ؟

أنا لم أذهب الى الصين ، فى آخر أطراف الدنيا ، وأعود منها ، لأروى للناس قصصا طريفة عنها !

وأنا لم أذهب الى الصين ، فى آخر أطراف الدنيا وأعود منها ، لأروى للناس نوادر الحياة فيها !

وأنا لم أذهب الى الصين ، فى آخر أطراف الدنيا ، وأعود منها ، لأحكى للناس غرائب حياتها ، مما لم يألفوا من قبل !

أنا لم أذهب الى الصين ، لأروى هذه الجزئيات ، وهذه الأقاصيص ، وهذه النوادر ... فأنى لم أحس لحظة أن هذه المهمة ، يمكن أن تكون مهمتى !

ولكن مهمتى ، كما أحسستها ، من اللحظة التى قبلت فيها الدعوة للذهاب الى الصين ، أن أروى للناس الحقيقة عن الصين .. كما اتبينها .. فأن لم أستطع ، فكما أشعر بها .

لقد درج الناس على أن يتصوروا الصين قطرا كبيرا من أقطار الأرض ، مفروشا بالأفيون !

ودرج الناس ، على أن يتصوروا كل صينى .. مختفيا فى الظلام ، وفى يده سكين ، منتظرا أول من يمر به ، ليهجم عليه ، يسلبه الروح ، والمال .. فى سبيل قطعة من الأفيون ، يسد بها مزاجه الفارغ !

... وقيل لهم أخيرا ، أن هذا قد انتهى ، وأن الصـــــين الشعبية قد نهضت ، وبدأت تقف على قدميها .. من غير أفيون ..

بل هى ، بدأت تعدو نحو تحقيق مجتمع جديد .. لتستعيد ماضيهـــا الكريم ، يوم كانت مدنيتها تقود العالم نحو النور .

وعجب الناس وانقسموا : فريق يصدق أن معجزة ما قد حدثت هناك ، فى آخر أطراف الدنيا .. وفريق آخر يهز كتفيه . مصرا على أنها دعـاية لا أكثر ! ..

وأنا لا أدعى أن المدة التى قضيناها فى الصين تكفى لأن نعرف عنها كل مايجب أن ننقله للناس .

أنا لا أدعى هذا ، فأن الأسابيع الخمسة ، التى قضيناهـا فى الصين ، لا يمكن أن تكفى للدراسة والبحث والاستقصاء ، والوقوف على حقيقـــة الحياة ، والناس .

على أنها ، وان قصرت ، كافية للعودة بأثر عن الصين الشعبية ، وحياتها الجديدة ... أثر قريب من الواقع ، مأخوذ منه ..

* * *

ولنعد الى الصين ... ماهى ؟..

لست من هواة الجغرافيا ، ولا الجولوجيا ، ولا علم طبقـات الأرض ... ولكنى من هواة الحياة .

والحياة عندى .. طبيعة ، وناس ... يؤثر كل منهما فى الآخــــر ، ويتأثر كل منهمـا بالآخر .. وقد يتصـارعان ، وقد يتهادنان ، ولكنهما أبدا ، عنصران رئيسيان ، فى تكوين الحياة .

فاذا أردت أن تدرس الحياة فى مكان ما ، فالواجب يقتضيـك أن تدرس

هذين العنصرين معا .. لتعرف طبيعة الحياة في هذا المكان ، والا فاتتـــك الحياة ...

والطبيعة في الصين شيء عجيب ...

تصوروا مساحة من الأرض مقدارها بين التسعة بلايين من الكيلومترات المربعة ، والعشرة بلايين ؟ !

أقول بلايين لا ملايين ...

وهذه المساحة الواسعة من الأرض ، ليست مسطحة كلها ، ولا منبسطة كلها ، ، ولا صخرية كلها ، ولا جبليـــة كلها .. ولكنها تجمع جميـــع الأصناف والأنواع ، فمنها ٠١٠٪ أرض مسطحة تتوافر فيها الميـــاه ، و ١٩٪ مساحة الأنهار الـــكثيرة التى تتخللها ، و ٠١٠٪ هضـــاب و ٠٣٠٪ أراضى مرتفعة ، و ٠٣٠٪ مساحة جبلية صخرية .

وأهم هذه الانهار « اليانتسا » والنهر الأصفر ، أو مايعرف عند أهالى الصين بنهر الأحزان ، وستأتى قصته فيما بعد .

وبجوار الأنهار توجد بحـــيرات أهمها « التنج تنج » و « البويانج » ، و « التاى » ، و « البحيرة الغربية » فى هانشو ، وهى حديث الصـــين جميعا ، لما تكسبه للمنطقة كلها من منظر بارع ، وما تضفى عليه من سحر ، وفتنة ، وجمال .

أما الجبال ففى الصين جبال « الهملايا » الشهـــيرة ، و « الآرتاى » ، و « التيين » ، و « الكوينج لانج » وقمة « جومولاما » ، وهى ما تعرف بقمة « أيفرست » ، وارتفاعها ٨٨٨٠ مترا فوق سطح البحر .

وبمناسبة قمة « الأيفرست » هذه ، وجدت الصينيين لا يرتاحون لهذه التسمية ، ويعتبرونها تسميـــة استعمارية ، لتغيير الاسماء الصينيـــة القديمة ، وهى عندهم معروفة منذ القدم باسم « جومولاما » لا « ايفرست » ويقولون ان « الأيفرست » اسم اجنبى ، اتى مع الاستعمار .

تماما كما يقولون عن « فرموزا » ، واسمها عندهم « ثايوان » ، أما « فرموزا » فاسم هولندى استعمارى ، لا يستعمله الصينيون .

وبجوار هذه الطبيعة العجيبة ، المتفاوته ، تجد للصين شواطىء تمتد الى أكثر من ١١٫٠٠٠ كيلومتر ، حول بحار « البو » ، و « البحر الاصفر » ، و « البحر الشرقى » ، و « البحر الجنوبى » .

أما عن أطوالها من الشمال الى الجنوب ، ومن الشرق للغرب ، فهى تزيد قطرا ، عن خمسة آلاف كيلومتر .

والطقس فى الصين ، كالطبيعة ، متفاوت بشكل مثير .. فبينما تجد الشمال الغربى قاريا ، شديد الحرارة صيفا ، شديد البرودة شتاء ، بلا مطر يذكر ، حاد الرياح ، سريع التقلب .. تجد الجنوب الشرقى كثير المطر ، والرطوبة ، وان يكن أكثر اعتدالا ..

معذرة ، هذا ما تقوله الجغرافيا .. فلنسمع ما تقوله التجربة ..

كنا فى « كانتون » ، نخرج الى الطرقات بدون معاطف .. لا أقول أن الجو كان حارا ، ولكنه كان محتملا جدا .. ربما أكثر احتمالا من هذه الأيام من شهر فبراير فى القاهرة ..

فلما سافرنا الى « بكين » ، كان على الطائرة أن تهبط لمدة ساعة فى مطار « هانكاو » .. وأحسسنا ساعة هبطنا على أرض المطار ، أن البرد قارس حقيقة ... فلما وصلنا الى « بكين » ، بدأنا نحس رعدة فى أجسامنا ، ولولا الاستقبال الرسمى الذى صادفناه ، لهرولنا من قسوة البرد !

وبعد أيام فى « بكين » أعتدنا على درجة البرودة ، التى قيل لنا عنها أنها درجتان تحت الصفر ..

ثم حزمنا متاعنا لرحيل الى الشمال الشرقى ، حيث تنخفض درجة الحرارة الى ١٨ أو عشرين درجة تحت الصفر ! !

وقد احتطنا لهذا البرد ، بأن دخلنا فى ملابس ، أحالتنا الى « كرمب » أو « بالونات » ! ٠٠ ولكنا على أى حال نجونا من لذعة البرد القاسية ٠

وعدنا الى « بكين » ، فأحسسنا أننا نعود الى خط الاستواء ! ! لأن درجة الحرارة فيها ، كانت اثنين فقط تحت الصفر !

وغادرنا « بكين » الى « شنغهاى » ، فوجدنا الجو يحتمل أن نخرج أحيانا دون معاطف ٠٠ وقلنا انتهى ٠٠ لن نعود فى حاجة الى هذه المعاطف الثقيلة ٠

ولكنا فى « هانشو » عدنا نرتعد ٠٠

وفى « هانكاو » ، ذهبنا الى احدى دور العرض ليلا ، فكدت أفقد فيها قدمى ، من شدة البرد ، فلما خرجنا من هذه الدار ، لنركب سياراتنا ، كان الثلج قد تراكم حول عجلات السيارات ، حتى لم تعد تقوى على المسير ٠٠٠ الا للوراء !

وعدنا الى فندقنا بشق النفس ، ولم أكد أستقر فى غرفتى ، الا والزملاء يقبلون على ، محنيى الظهور من قسوة البرد ، لأن مدافىء حجراتهم توقفت وهم على وشك الموت من قسوة الطبيعة !

وجلسنا جميعا حول المدفأة ٠٠ ، بل وفيها ! ! نحتمى بها من الهلاك !

واذن ، فحيث كانت درجة الحرارة ، فى مقياس الحرارة ، تنخفض الى دون العشرين درجة تحت الصفر ، لم نكن نحس هذا الزمهرير ، وحينما وصلنا الى حيث ترتفع ! الى أربع أو خمس درجات تحت الصفر ، تعرضنا لهذه القسوة الرهيبة !

هذا ما تقوله التجربة عن الطقس فى الصين ، فى شهرى ديسمبر ويناير من سنتى ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ ٠

أى حال ٠٠٠ ان الطبيعة فى الصين ، طبيعة متفاوتة تفاوتا كبيرا ٠٠

فالجبال تكون ٣٠ ٪ من ارض الصين ٠

والأنهار تكون ١٩٠٠/٠ فضلا عن الهضاب والأراضى .

وهذا معناه بصورة واضحة ، أن الموانع الطبيعية ، متوفرة فى الصين.. وهذه الموانع يمكن فى حالات سياسية خاصة ، أن تكون حدودا طبيعيـــة فاصلة ، بين جزء من الأرض ، والجزء الآخر .

وهذا يؤدى ، تمشيا مع طبائع الأشياء ، الى أن هذه الأراضى الواسعة، لا يمكن توحيدها بسهولة ، فالطبيعى أنها منفصلة ، والطبيعى أن سكانها متميزون .. سكان كل منطقة ، عن سكان المناطق الأخرى .. والطبيعى أن تتميز تبعا لهذا ، الأمزجة ، والعادات ، والتقاليـــد ، والأديان .. واللغات أيضا ..

وقد حدث هذا بالفعل ، منـــذ بدأ تاريخ الصين ، اى منذ أربعـة آلاف سنة .. لم تكن موحدة أبدآ فى يوم من الأيام .

وهذا سور الصين العظيم ، احدى معجزات الدنيا ، يروى لنا هـــذه الحقيقة التاريخية ، منذ أكثر من ٢٥٠٠ سنة ..

لقد أقامته ســـبع ولايات مستقلة ، هى ولايات : « تشى » و « تشو » و « ين » و « هان » و « تشاءو » و « وى » و « تشن » .

هذه الولايات وجدت نفسها دائما معرضـــــة لغارات التتار والمغول ، فأرادت أن تحمى نفسها من هذه الغارات ، فأقامت السور ، مفرقا ، فوق قمة جبل « باتا لنج » لتدفع منه العدوان .

ومن هذا الارتفاع ، وهو خمسة عشر مترا فوق قمة الجبل ، استطاعت أن ترقب حدودها ، لتتبين الخطر ، وتستعد له ، وتدافع عن نفسها منه .

ولكن الامبراطور « تشن شن هوانج » حاكم ولاية « تشن » ، استطاع منذ ٢٥٠٠ سنة ، أن يستولى على المقاطعات السبع جميعا ، وأن يوحدهـا تحت تاجه ، فكان طبيعيا ، أن يوحد السبع أجزاء من الســـور العظيم ، ليجعل منها سورا موحدا ، يتفق مع ملكه الموحد .. وبهذا امتد الســـور

العظيم مسافة ٢٧٠٠ كيلومتر ، فوق قمة الجبل ، ابتداء من « شان هان كوآن » شرقا الى « تشا جو كوان » غربا ٠

هذا السور فى ذاته قصة٠٠عناصرها هى : الولايات السبع٠٠والغارات الدائمة عليها ٠٠ ومقتضيات الدفاع ضد الغزو ٠٠ والتوحيد تحت تاج واحد ٠٠٠

وهذه عناصر تلخص مقتضيات الطبيعة طيلة تاريخ الصين ٠

على أن قصة السور العظيم لاينبغى أن تمر ، دون أن نسجل هنا ما يرويه القصص التاريخى عنها ، وما ترويه ألسنة الناس اليوم ٠

أما القصص التاريخى ، فيروى أن السخرة كانت هى وسيلة الحكام الى أقامته ، فقد سخر هؤلاء الحكام الرعية ، وأرغموهم على البناء ، للمحافظة على استقلال الولايات ، ولحماية تيجان أباطرة الاقطاع ٠

وقد بلغ عدد المسخرين من الرعية فى البناء ، قرابة مائة ألف صينى٠٠

٠٠٠ تماما كمن سخروا فى بناء الهرم الأكبر أيام الفراعنة ٠

ويحكى أن سيدة فقدت فى سور الصين زوجها وأولادها ، فظلت تبكى ، فى مرارة محتاجة يائسة بائسة ، حتى حطمت دموعها جزءا كبيرا من السور ، فكان جزاؤها أن ألقيت من فوقه لتموت ، جزاء لها على حزنها ! !

أما ما تحكيه الألسنة اليوم عن سور الصين العظيم ، فهو أنه أثر من آثار الشعب ، يدل على صبره وجلده وبسالته ، وقد ذهب الملوك٠٠ وبقيت جهود الناس حية ، تروى قصة من قصص كفاحهم المجيد ٠٠

وقد سمعت أول تشبيه عن السور العظيم ، فى أول حفل لاستقبالنا فى النادى الدولى فى « بكين » ، فقد قال رئيس اتحاد الصحافة الصينى ، انه يأمل أن تكون علاقات مصر والصين دائما ، فى قوة الأهرام ، وسور الصين العظيم ٠٠

وأردت أن أداعبه ، فرددت على كلمته قائلا : **أننى أحترم تشبيه الزميل رئيس الاتحاد ، ولكننى أرجو أن تكون علاقاتنا أقوى من الهرم وســور الصين العظيم ، لأن أرادتنا يجب أن تتجاوز أرادة أجدادنا .**

وأعجب الزميل رئيس الاتحاد جدا بهذه الملاحظة ، فشكرنى عليهـا ، وأتخذ منها عنوانا كبيرا فى صدر صحيفة الشعب ، التى يرأس تحريرها ، عندما عرض لحفل استقبالنا ، كأول وفـد صحفى مصرى ، يزور الصين الشعبية ..

* * *

لنترك الطبيعة ... الآن ...

ولنتحدث عن الانسان الذى يعيش فى هذه الطبيعة ..

طبيعى أن يكون التعداد كبيرا .. كبيرا جدا .. فان عشرة بليون كيلو متر مربع ، ليست بالمساحة الهينة.

وفى الصين الان ستمائة مليون انسان ، واربعة ملايين بالتمام والكمال ، منهم ٨٢ر٥٠ من الرجال و ١٨ر٠٤٨/٠ من النساء .

وهذا معناه أن الرجال والنساء يكادون يكونون متقاربين ، بعكس كثير من الدول الغربية كألمانيا الغربية مثلا ، كانت نسبة الرجال الى النساء فيها فى أعقاب الحرب الأخيرة واحدا الى سبعة .. مما أدى الى مشكلات اجتماعية مختلفة ، ودعا نساء ألمانيا الى المطالبة بتعدد الزواج ! !

ولو قسمنا الناس على الأرض فى الصين ، لأصبح لكل ستة من أبنـاء الصين عشرة كيلومترات مربعة ، وهذا معناه أن الأرض واســعة جدا فى الصين .

وقد اقتضت الطبيعة فى الصين ، أن يوجد عنصر غالب ، وهو ما يسمى « بالهان » ، وبجواره قوميات مختلفة أخرى ، تصل الى ستين قومية ، على أن « الهان » تكون وحدها ٩٤ر٠٩٣/٠ من مجموع الشعب الصينى .

وليس معنى هذا ان المساحة التى تشغلها قومية « الهان » ، تضطرد مع نسبتها العددية ٠٠ فان القوميات الصغيرة تعيش فى مساحات واسعة جدا من الأرض ، تفوق كثيرا نسبتها العددية ٠

والواضح من هذه الحقائق ، أن أراضى الصين تتسع لأضعاف العدد الذى يعيش فيها الآن ٠٠ فاذا سمعنا بعد ذلك أنهم هناك ، برغم كثرتهم الهائلة يشجعون النسل ، وأنهم يأملون أن يزيدوا بعد سبع سنوات مائة مليون ، وأن يضطرد نموهم بهذه النسبة ٠٠ اذا سمعنا هذا ، فيجب ألا نعجب ، أولا لأن طبيعة أراضيهم تتسع لأضعاف عددهم ، وثانيا لأن المذهب الاشتراكى ، لا يؤيد تحديد النسل ، لأسباب طويلة مختلفة ٠

* * *

ولنعد الى القوميات الصغيرة فى الصين ٠

فى الشمال الغربى مثلا ، توجد أكثر من اثنى عشر قومية ، مجموعها ستة ملايين وثلاثمائة ألف شخص ، وهذا المجموع يكون خمس سكان هذا الجزء من الصين ٠

وهذه القوميات هى : « الأيجرس » و « الحوى » و « التبت » و « الكازاك » و « التنجسيانج » و « المغول » و « القوقاز » و « التو » و « الأوزباك » و « التتار » و « التادجيك » و « المانشوس » و « السولون » و « السالا » ٠

أما فى الجنوب الغـــــربى ، فتوجد قوميات : « التبت » و « اليى » و « المياءو » و « الحـــوى » و « التاى » و « البـــويى » و « المنشـــيا » و « الناهس » و « الكاوا » ٠٠ وعدد هؤلاء جميعا أكثر من عشرين مليونا ، وهذا العدد يكون أكثر من خمس هذه المنطقة من الصين ٠

وفى وسط الصين وجنوبها ، نجد قوميات : « التشيانج » و « المياءو » و « الياءو » و « التانبج » و « الحوى » و « اللى » و « الكولو » و « اللنج » و « اللاى » و الماءونان » ٠٠ وعدد هؤلاء بين الثمانية والتسعة ملايين ، وهذا العدد يكون عشر سكان المنطقة ٠

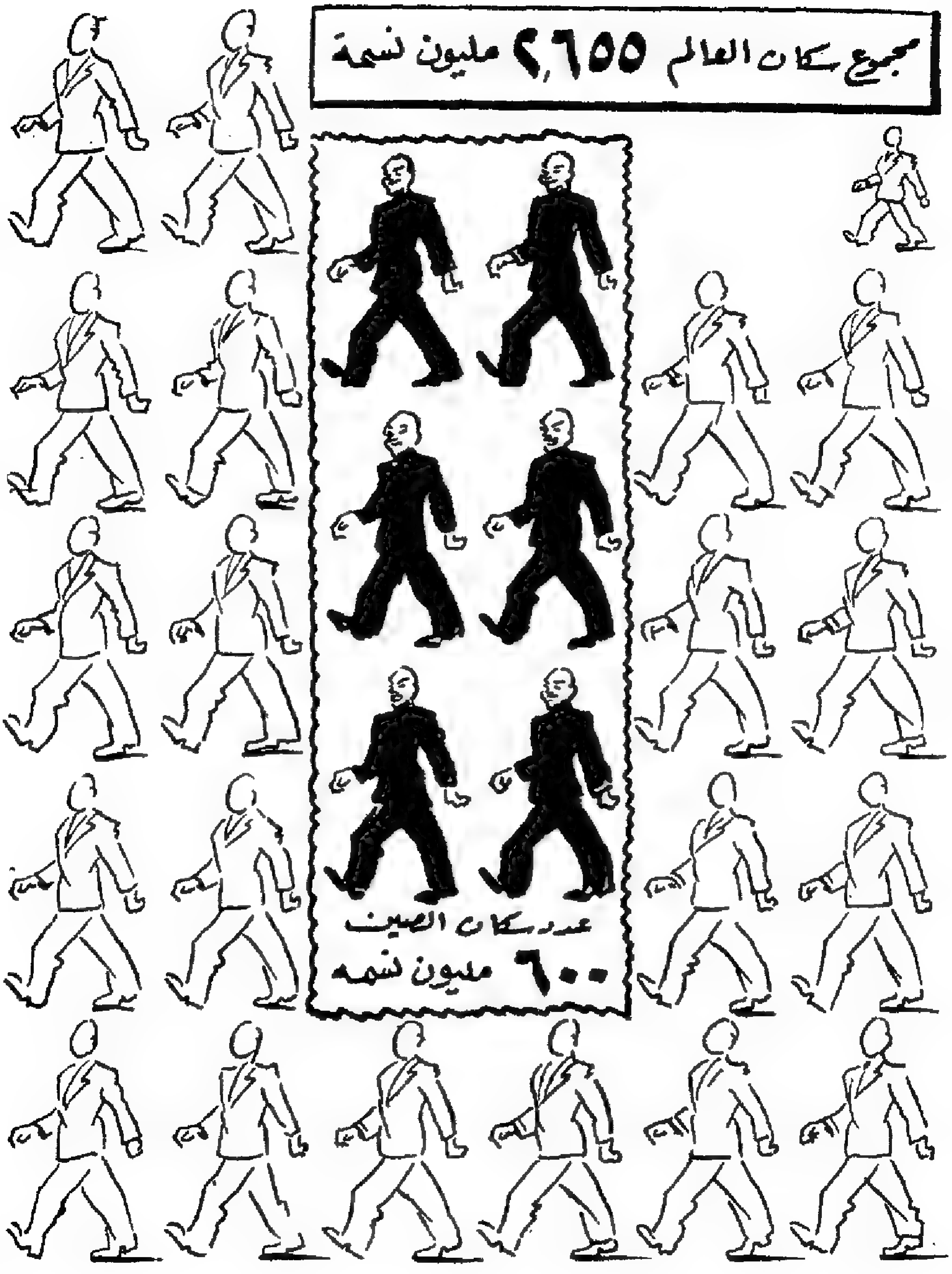

العالم كله ٢٦٥٥ مليون ... والصـــين وحدها ٦٠٤ مليون

وفي الشمال الشرقي من الصين نجد قوميات : « الكورية » و « المانشاس و « المغول » و « الخوى » و « التاهير » .

وفي شرق الصين نجد قوميات : « الخوى » و « الماعو » .

وفيما يلي أكبر هذه القوميات ، وعددها ، والمقاطعات التي تسكنها :

« التشانج »	٦٦٠٠٠٠٠٠ر٦	يعيشون في مقاطعة «كوانجسى»
« الويفر »	٣٧٠٠٠٠٠ر٣	يعيشون في مقاطعة « سنكيانج »
« الخـوى »	٣٦٠٠٠٠٠ر٣	يعيشون في مقاطعات « كـــانس و « تشنجهاى »
« اليـــى »	٣٣٠٠٠٠٠ر٣	يعيشون في مقاطعات « ليانجشـــان و « يونان »
« التبـت »	٢٨٠٠٠٠٠ر٢	يعيشون في مقاطعـات « شـــكانج و « تشنجهاى »
« الميـاعو »	٢٥٠٠٠٠٠ر٢	يعيشون في مقاطعات « كويشـــو وغرب « هنان »
« المغـول »	١٥٠٠٠٠٠ر١	يعيشون في مقاطعات « منغوليـــا و « تشانجهاى » و « سنكيانج »
« البـوى »	١٢٥٠٠٠٠ر١	يعيشون في مقاطعة « كويشو »
« الكورى »	١١٠٠٠٠٠ر١	يعيشون في مقاطعة « كيرين »
« التنـج »	٦٠٠٠٠٠ر	يعيشون في مقاطعات « كويشـــو وكوانجسى »
« اليـاعو »	٦٠٠٠٠٠ر	يعيشون في مقاطعـــات « كوانجسى وكوانجتنج و « هنان »
« التـاى »	٥٠٠٠٠٠ر	يعيشون في مقاطعة « يونان »

هذه هي أهم القوميات التي تعيش في الارض الصينية ، على أنها ليست كل القوميات ، فهناك قوميات مختلفة يتراوح عددها بين الخمســـة آلاف والخمسمائة ألف .

وقد نشأ عن تعدد هذه القوميات أن تعرضت الصين في تاريخها الطويل ، لألوان كثيرة من الخلافات والغارات والحروب الاهلية .

وفي تاريخ الصين أكثر من قصة عن غارات « المغـول » و « التتـــار » خاصة ، على بقية مقاطعات الصين .

وقد كان بعض الأباطرة القدامى يستعينون بما بين الأقليات من خلافات لتستقر لهم الأمور ، ويسيطرون بالتالي على أكبر مساحة ممكنة من الأراضي الصينية .

والتاريخ يروى قصة أباطرة أسرة « مانتشو » سنة ١٦٤٤ ، حينمـــا أرادوا أن يكسروا شوكة « المغول » ، فنقلوا الى مقاطعتهم عددا كبيرا من « الهان » ، وهم الغالبية العظمى من سكان الصين ، واشعلوا بين القوميتين خلافات ، ظلت قائمة مددا طويلا من السنين ، مما أدى الى حروب أهليـــة شنها « المغول » على الأباطرة لمدة سبعين عاما ، ولكنها باءت جميعا بالفشل وأدت الى قتل عدد ضخم من « المغول » .

وفي عهد « تشيانج كاي شيك » استمرت سياسة الدولة قائمة على التمييز بين « الهان » والقوميات الصغيرة الاخرى ، وتعرض المسلمون بالذات للأذى وهجمت عليهم قوات الحكومة مرات عديدة ، بحجة حفظ النظام في المناطق الشمالية الغربية النائية .

على أن لمشكلة القوميات عدة مشكلات أخرى تتفرع عنها وأولها مشكلة اللغة ، فلكل قومية لغة خاصة ، أو بالتحديد لهجة خاصة ، تنطق نطقا يجعلها بعيدة عن اللهجات الأخرى ، وان كانت عند الكتابة ، تكتب جميعهـــا بطريقة واحدة .

وبعض هذه اللغات ينطق ولا يكتب ، نظرا لانحطاط المستوى الثقافى بين سكان بعض المقاطعات ، وبعد جهاز الدولة عنها ، وانشغال القائمين بالامر بحماية أنفسهم ، عن الانصراف لرفع مستوى الثقافة والتعليـــم بين أبناء الصين جميعا •

وكضرورة لاختلاف طبيعة كل أقليم عن الآخر ، وكضرورة لبعـــد المسافات بينها ، نشأت فى كل أقليم من هذه الاقاليم عادات خاصـــة ومعتقدات خاصة كذلك ، فالملابس مختلفة خاصة بين أزياء النساء ، والفنون مختلفة خاصة فى الرقص والغناء •

★ ★ ★

هذه صورة عامة للصين من ناحية أقاليمها وقومياتها ، وطبيعى أن تكون هذه الصورة دليلا على قسوة المحن التى مرت بتاريخ هذه الأمة القديمة ، فاذا ماتركنا هذه الناحية ، ونظرنا الى الصـــين من ناحية أخرى ••• من ناحية مواردها مثلا ، أو ثروتها الطبيعية ، وجدنا أن الأرض الزراعية بهـا تبلغ واحد بليون و ٦١٨ مليون ماو ، والماو يوازى أربع قراريط مصرية ، وهى مساحة تعتبر صغيرة بالنسبة لمساحة الصين الكلية ، وهى حـــوالى عشرة بلايين كيلو متر مربع •

أما الصناعة فقد عرف عن الصين انها كانت دولة متأخرة جدا من الناحية الصناعية ، ولهذا كان اقتصادها القومى متدهورا الى أقصى حدود التدهور •

وقد بلغ عدد الملكيات الخاصة فى الصين ١٣٠٠٠٠ ، بأعتبار أن العمـل الخاص يضم أكثر من اربع عمال ، وكان عدد العمال فى الصناعة حتى سنة ١٩٤٩ مليونين من العمال •

أما محال التجارة فى المدن فعددها أربعة ملايين محلا تجاريا ، يعمل بهـا ستة ملايين عامل تجارى •

أما الصناع الذين يعملون بمفردهم ، فقد بلغ عددهم ثمانية مـلايين صانع •

وهكذا تدل الظواهر الاقتصادية فى الصين حتى سنة ١٩٤٩ على تغلب التجارة على الصناعة سواء فيما يتصل برأس المال او عدد المشتغلين بهـا أو الأرباح .. وهذا دليل على اضطراب الاقتصاد القومى واعتمادة عـلى الخارج ، دون أن يوطد نفسه بدعم الصناعةالمحلية وتغليبها ، كعنصرانتاجى، على التجارة .

ومن المحقق أن الثورات والحروب الأهلية وحرب اليابانيين ، كانت كلها عوامل أدت الى هذا الاضطراب الاقتصادى والى ضعف الصناعة وتدهورها ، وجعلها دائما مهددة بالمنافسة الأجنبية .

وطبيعى أن ينشأ فى ظل هذا الضعف والتدهور والانهيـــار ، اقطاع مسرف ، وحاجة مسرفة .... وطبيعى ان ينشأ عنه ايضا ، احتكار مسرف، وتعطل مسرف ... وطبيعى ان ينشأ عنه أخيرا ، فســـاد ، ورشـــوة ، وآنحلال ، وتفكك ، وانتهازية ، وخيانة وغدر !!

* * *

ماذا فعل الحكم الجديد فى الصين بعد أن نجحت الثورة ليصحح من هذه الاوضاع جميعا ؟

ماذا فعل وقد ورث هنا الميراث المنهار الضعيف ؟

القوميات متعددة ، والمقاطعات متأخرة ، والنظام الاجتماعى متـــهار ، والصناعة تكاد تكون معدومة بالنسبة الى موارد الصين الطبيعية ، والتجارة عالة تعيش على الخارج ، والزراعة حكر فى أيدى الاقطاعيين الكبار ، والتعليم منحط لدرجة وجود لغات تنطق ولاتكتب ! والمرأة والطفل ونظام الأسرة فى انهيار ذليل !

كان الاقطاعيون ملوكا فى اقطاعياتهم ، بل كانوا طغاة مستبدين ... كانوا يمتهنون الحـرمات ، ويتحكمون فى أرزاق الناس ، يعطون ويمنعون حسبما يريدون .

وكان اذلال الناس هو القاعدة فى تصرفاتهم ، وليس أدل على اهـــدار الكرامة الانسانية ، من أن هؤلاء الملاك الاقطاعيين ، كانوا يأمرون فلاحيهم بألا تتزوج عروس ، الا بعد أن تقضى الليلة الأولى مع مالك الأرض !

ماذا فعل الحـكم الجـديد ازاء اضطهاد المجتمع للمرأة ومنعها من الحقوق الأولية للانسان ؟

ان مقدمة الدستور الصينى تنص على أن نظام الديمقراطية الشـعبية فى الجمهورية الشعبية الصينية يضمن للبلاد أن تتمكن من تصفية الاستثمار ، والبؤس ، وبناء مجتمع اشتراكى مزدهر سعيد ، عن طريق سلمى ٠ وأن المرحلة التى تمتد من انشاء الجمهورية الشعبية الصينية ، الى ان يتم بنـاء المجتمع الاشتراكى ، مرحلة انتقالية ، تحقق فيها الدولة تصنيع البـــلاد الاشتراكى بصورة تدريجية ، وانجاز التحويل الاشـــــتراكى فى الزراعة والصناعة اليدوية وفى الصناعة الرأسمالية والتجارة الرأسمالية بصـورة تدريجية ٠

كما نصت مقدمة الدستور على أنجميع القوميات قد اتحدت فى عائلة كبرى من الشعوب الحرة المتساوية ، على أساس النضال ضد الاســتعمار وضد اعداء الشعب ، داخل كل قومية من القوميات ، وضد تعصب القومية الكبرى وتعصب القومية المحلية ٠٠ وأن الدولة ستراعى حاجات جميع القوميات أثناء البناء الاقتصادى والثقافى ، وســتأخذ تماما خصـــائص تطورها بعين الاعتبار ، فيما يتعلق بالتحويل الاشتراكى ٠

والمادة الثالثة من الدستور تنص على أن : « الجمهورية الشعبية الصينية دولة متعددة القوميات موحدة ، وأن جميع القوميات متسـاوية ، والتمييز والاضطهاد ازاء أى قومية ممنوعان ، وكذلك الاعمال التى ترمى الى تمزيق اتحاد القوميات ٠٠ ولجميع القوميات حرية اســـتخدام لغاتها المنطـــوقة والمكتوبة وتطويرها ، وحرية ابقاء عاداتها وتقاليدها ، أو اصلاحها ٠ »

كما نصت على أن : « يطبق الاستقلال الذاتى المنطقى ، فى الاقاليم التى

تتكتل فيها أقليات قومية ، على أن يكون كل أقليم منأقاليم الاستقلال الذاتى جزءا لايتجزأ من الجمهورية الشعبية الصينية »

ونصت المادة الخامسة من الدستور على أن : « ملكية وسائل الانتاج فى الجمهورية الشعبية الصينية فى الوقت الحاضر ، تحتوى على الاشكال الاساسية التالية : ملكية الدولة أى ملكية كل الشعب ، ملكية التعاونيات ، أى الملكية الجماعية للجماهير العاملة ، ملكية العمال الفرديين ، ملكية الرأسماليين . »

ونصت المادة ١٩ من الدستور على أن : « الجمهورية الشعبية الصينية تدافع عن نظام الديمقراطية الشعبية وتقمع كل نشاط خائن للوطن ومناهض للثورة ، وتعاقب جميع الخونة والعناصر المعادية للشعب ، وتحرم الدولة وفقا للقانون ، الملاك العقاريين الاقطاعيين والرأسماليين الديمقراطيين ، حقوقهم السياسية لفترة معينة ، وتهيىء لهم فى الوقت نفسه سبيلا للحياة ، لكى يصلحوا أنفسهم بالعمل ، ويصبحوا مواطنين يعيشون على عملهم الخاص . »

وفى المادة ٨٦ أن : « جميع مواطنى الجمهورية الشعبية الصينية ، الذين بلغوا من عمرهم الثامنة عشرة ، لهم الحق فى أن ينتخبوا وينتخبوا ، بصرف النظر ، عن قوميتهم ، وعرقهم ، وجنسهم ، ومهنتهم ، ومنشئهم الاجتماعى ، واعتقادهم الدينى ، وتعليمهم ، وأملاكهم ، ومدة اقامتهم ، باستثناء المصابين بالامراض العقلية ، والاشخاص المحرومين بموجب القانون من حقهم فى أن ينتخبوا وينتخبوا ــ تتمتع النساء متساوية معالرجال بحقهن فى أن ينتخبن وينتخبن »

وفصلت المادة ٩٦ من الدستور الحديث عن المرأة الصينية فقالت:« تتمتع النساء فى الجمهورية الشعبية الصينية ، بنفس الحقوق التى يتمتع بها الرجال ، فى جميع ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والعائلية ، وتحمى الدولة الزواج والعائلة والأم والطفل . »

* * *

هذه هى نصوص الدستور الصينى ، التى تناولت الميراث القديم ، محاولة أن تضع أساسا جديدا ، لحياة جديدة ٠

على أن النصوص لاتؤدى دائما الى الغاية منهـا ، وهى ، مالم تطبق وتمارس فعلا ، تظل حبرا على ورق ، أو سلاحا مفلولا لاقيمة له ٠

فهل طبقت هذه النصوص فى الدستور الصينى ؟

وهل أدى تطبيقها ، الى الغاية التى وضعت هذه النصوص من أجلها ؟

أما مساواة المرأة بالرجل ، فقد طبقت تطبيقا كاملا ، ومنحت المرأة نفس الحقوق التى للرجل ، دون أدنى تمييز بينهما ٠ وأدى هـذا الى ان أصبح ١٤٩ من النساء نوابا فى مجلس الشعب ، وهو عدد يكون ١٢ ٪ من العدد العام للنواب ٠ كما أدى هذا الى أن اصبحت فى الحكومة المركزية أربع وزيرات ، هن وزيرات الصحة والعدل والتموين والعمل ٠ وكـذلك أدى الوضع الجديد ، الى أن أصبح من النساء أربع نواب وزراء ٠

وفى المادة الأولى من قانون الزواج الصادر فى أول مايو ١٩٥٠ النص التالى : **يمنع منعا تاما ، الزواج الاقطاعى ، القائم على الغرض والقـوة ، واستغلال تفوق الرجل على المرأة ، وتجاهل مصلحة الأطفال ، ويحل محله الزواج القائم على الاختيار الحر من الجانبين ، والتفاهم ، والحقوق المتساوية، وحماية المصالح القانونية للنساء والأطفال ٠**

ومنعت المادة الثانية الجمع بين أكثر من زوجة ، كما منعت التدخل فى شئون الارامل ، وحظرت دفع المهور ، وتقديم الهدايا « الشبكة »

وحددت المادة الرابعة من هذا القانون عشرين سنة سنا لزواج الشاب ، و١٨ سنا لزواج الفتاة ٠

وفى المادة السابعة نص صريح على أن **الزوج والزوجة شريكان يعيشان معا ولكل منهما وضع يساوى وضع زميله فى المنزل ، وفى المادة التاسعة أطلاق حق كل منهما فى اختيار العمل الذى يريده ، والاشتراك فى النشاط الاجتماعى الذى يفضله ٠**

ويمضى القانون يؤكد هذه المساواة ، بما قد لانحتمله نحن فى مجتمعنا .

والحقيقة الواضحة الآن فى الصين أن المرأة تحولت الى عنصر منتج فى كل ميدان ، وقد سألت كثيرين ممن اتصلت بهم عن نسـبة النساء اللائى لايعملن وينصرفن انصراف كاملا الى بيوتهن فوجدت أن هذه النسبة قليلة جدا ، وأغلب النساء غير العاملات أما كبيرات السن ، أو مريضات ، أو لهن عائلات كبيرة ، تتطلب منهن انصرافا لها ، أما غير هؤلاء فهن جميعا يعملن.

وقد قال لى زوج تعرفت به فى أحدى المناسبات ، أن نســاءنا يرون أن يمارسن حقوقهن التى نلنها ، وهن يعتقدن أنهن ان لم يفعلن هــذا ، فان هذه الحقـوق تصبح عديمة القيمـــة ، وهذا هو السبب فى اصرارهن على العمل .

* * *

والذى يستحق التسجيل هنا ، أن النظام الجديد قضى على البغاء قضـاء نهائيا .

وقد عجبت عندما وصلت الى شنغهاى ، فقد كنت أتوقع أن أجد مخلفات ولو طفيفة للبغاء ، فى مدينة تعدادها أكثر من ستة ملايين ، عاشت عــلى البغاء ، والقمار ، والتهريب ، والاستمتاع .

ولكنى لم أجد لذلك أثرا ... المدينة متبتلة ... متصوفة ... لاتجد فيها جفونا أرقها السهر ، أو أضناها الاستغراق !

وسألت فى صراحة ، فقالوا لى : سترى بعينك .

وصحبونا الى دار خاصة ، أعدت لتحويل البغايا الى مواطنات صالحات .. ووجدت الدار معهدا ومصنعا وناديا ومصحا ودار حضانة فى آن واحد .

ودرنا فى المصـــانع ، فوجدناهن ... يعملن فى انتـــاج الشرابات ، والجونتيات ، والكوفيات !

لم تلتفت الينا واحدة ، فقد كن منصرفات تماما الى عملهن ••• على أني لاحظت بينهن فتيات صغيرات ، وفاجأني رد مديرة الدار ، حينما قالت لقد تسلمنا منهن فتيات فى سن العاشرة !

وفي الدار ناد تديره النزيلات ، ومستشفى لعلاجهن ، ومدرسة لتعليم أولادهن ، ودار حضانة للأطفال الذين هم في دور الحضانة ، وفصول محو أمية للنزيلات •

والبرنامج المخصص للنزيلات هو العمل لمدة ثماني ساعات ، والدراسة لمدة ساعتين ، والرياضة لمدة ساعة ونصف ، وهن يتقاضين مكافآت كل حين وآخر ، ترتفع الى عشرة يوانات ، وأقلهـــا ، يوان ، وللنزيلات حـــق الانتخاب والمراسلة مع ذويهن ، وعند الضرورة يصرح لهن بالخروج ، ليوم واحد ، تحت مراقبة لايشعرن بها •

على أن البرنامج يشمل أيضا رعاية اسرهن ، بحيث يتم اصلاح النزيلة والمكان الذى ستعود اليه فى وقت واحد •

وقد عقد لهن اجتماع عام عندما اقبلن الى هذه الدار ، ســـنة ١٩٥١ ، للترحيب بهن ، واعادة الثقة الى نفوسهن والتأكيد لهن ، أن اســـتعادة موقفهن من الحياة أمر سهل ميسور ، وأنه من الخطأ أن يقطعن الأمل •

وتبدأ الدراسات والعلاج الصحى والنفسى ••• كما يبدأ التعليم المهنى والسياسى •

وقالت المديرة أن العدد الذى جاءنا كان ٤٥٧١ ، خرج منـــه ٣١٣٦ ، ٦٠ ٪ عدن الى عائلاتهن فى الريف ، وكثيرات منهن تزوجن وكتبن الينـــا شاكرات ، وقد انجب بعضهن ، أطفالا ، ويعيشن فى اسرهن سعيدات •

أما اللائى بقين فى المدينة ، فقد ساهمن بنصيب كبير فى نشاط أحيائهن حتى لقد انتخب بعضهن ممثلات لنســـاء الحى ، فى منظمات النشـــاط الاجتماعى •

وقالت المديرة أن ٦٠ ٪ منهن كن أميات ، وقد تعلمن الآن القـــراءة والكتابة ، و٩٨ ٠/٠ منهن كن مريضات ، وقد شفى منهن ٨٧ ٠/٠

وأضافت أن فى الدار الآن ٣٥ طفلا فى دور الحضانة .

وقالت المديرة أن ٤٠ ٪ ممن خرجن لم يكن لهن عائل ، فوفرنا لهـــن العمل فى المصانع ، وبعضهن يعملن ممرضات ، وواحدة تعلمت ادارة نوع من الماكينات ودخلت مسابقة كانت فيها الأولى بين مائتين

على أى نحن لانصرح بخروج أحد من هنا ، ما لم تتوفر أربعة شروط : يقظة الضمير ، والاطمئنان الى اقتناعهن بالعمل والرغبة فى الانتـــاج ، وشفائهن من أمراضهن ، وضمان حياتهن بعد الخروج .

وسألت المديرة : وهل يدخل الانتاج هنا فى برنامج الانتاج القـــومى العام ؟

قالت : نعم ...

وذكرت سجن بكين ، وتحويله الى مصنع ، على أســـــس متقاربة من الأسس التى تقوم عليها هذه الدار ، وكيف يدخل انتـــاجه فى برنامج الانتاج القومى العام ..

... وهززت رأسى عجبا !!

* * *

أما مايتصل بالقوميات ، فقد كفل لها الدستور حريات لم تكن لها من قبل ، فى حكم نفسها ، فى نطاق الجمهورية الصينية الشعبية ، كما كفل لها التمسك بعاداتها وتقاليدها ولغاتها ، وتطويرها ، أو الابقاء عليها ، أو الاستغناء عنها .

وقد زرنا فى بكين معهدا خاصا ، اقامته الدولة للاقليات ، استقدمت اليه طلابا من اربعين قومية حتى الآن ، وهى فى الطريق الى أن تضم اليـــه طلابا من بقية القوميات الأخرى .

وتحس الحكومة الصينية أن الضرورة هى التى حتمت قيام هذا المعهد ، ففضلا عن أنها تعطى فيه لموظفى المقاطعات دروسا فى السياسة ، والاقتصاد والتاريخ ، والادارة ، فأنها تعد طبقة من المثقين من أبناء هذه القوميات ، ليقوموا بعد ذلك بنشر العلم فى مقاطعاتهم ، وتثقيف أبنائها .

أما اللغات غير المكتوبة ، فأن المحاولات العلمية تبذل لوضع حـــروف مبسطة لها ، بحيث تتحول الى لغات مكتوبة ، تنتشر بين أبناء القوميـــات المختلفة .

وقد أنشىء هذا المعهد سنة ١٩٥١ ، والتحق به ٢٠٠ طالب ، زادوا حتى وصلوا فى سنة ١٩٥٥ الى ١٦٠٠ طالب ووضع البرنامج على أســاس زيادة هذا العدد فى هذا العام الى ٢٤٠٠ ، وفى عام ١٩٥٧ الى ٣٠٠٠ طالب .. وهؤلاء الطلاب جميعا معفون من مصروفات الدراسة وثمن الكتب والملابس ومصرفات الاقامة ، ويتقاضون بعد هذا مصروفهم الخاص من ادارة المعهد ، وهم يتمتعون بحرياتهم الدينية ، حتى لقد أعدت فيه أماكن للعبادة ، لكل دين .

ويقوم بالتدريس فى المعهد أساتذة ، بعضهم من الاقليات ، وعدد هؤلاء ثلاثون أســـتاذا .

وفى مطعم المعهد وجدنا أماكن مخصصة للطلاب المسلمين ، وأخـــرى للبوذيين ، وغيرها للديانات الأخرى .

والحق بالمعهد متحف خاص ، يمثل الاقليات جميعها ... تاريخهـــا ، وحضارتها ، وعاداتها ، وكل المعلومات التى تتصل بها .

* * *

وبينما نحن نغادر معهد الأقليات ، شاكرين للأساتذة وممثل الطلاب والطالبات ، الذين رافقونا فى زيارتنا للمعهد ، كرمهم وأدبهم ورقتهم .. كانت أوبرا « بكين » ، قد بدأت نغماتها تنطلق ، من خلال الميـكروفونات ، فتملأ هذا المكان الكبير، بالنغم ... والألحان .

وانطلقت بنا السيارات ... تودعها البسمات المرحة على الوجوه ، وعشرات الأيدى ، تلوح فى الفضاء ...

كل يد من أقليم ، أو مقاطعة ، أو قومية ، أو دين !

كيف تحكم الصين ؟

كيف تحكم هذه المساحات الواسعة الشاسعة المتباينة ؟

كيف تحكم هذه المقاطعات البعيدة ، والتى تفصلها فى أكثر الأحيان ، موانع طبيعية منيعة ، تجعلها أقرب الى الحدود الطبيعية ؟

وهذه القوميات الستين ... بلغاتها المختلفة ، وتقاليدها المختلفة ، وأديانها المختلفة ... كيف تحكم ، وتوحد ، وتسير فى الطابور ؟

أن طبيعة الصين ، بمساحاتها الواسعة ، والفواصل الطبيعية التى تفصل بين أجزائها ، وتأخر طرق المواصلات فيها يجعلها عرضة للاضطراب وحقلا سهلا للثورات ، كما يجعل من الممكن لأية حركة عصيان أو تمرد ، أن تجد وسيلتها الى هذا العصيان وهذا التمرد ... الفرصة مواتية ، والطبيعة مساعدة ، والمسافات البعيدة ، تخدم هذه الغاية ... لو وجدت هذه الغاية .

ولكن هذا لم يحدث !

وقد مرت على الثورة الصينية الآن سبع سنوات ، والنظام مستقر ، والدولة موحدة .

وينادى تشانج كاى شيك ، فى الشهور الاخيرة من كل عام ، أنه سيحتفل بميلاد العام الجديد فى بكين ، أو نانكين عاصمته القديمة ، ويأتى العام الجديد ، وتشانج كاى شيك فى فرموزا ، أو تايلاند ، غارق فى الاحلام والاوهام والامانى !

هل يمكن أن نتصور ستمائة مليون وأربعة ملايين من البشر ، ليس بينهم خائن ، أو عميل ، أو مغامر ، يطمع فى مركز ، أوجاه ، أو سلطان ؟!

هل يمكن أن نتصور عشرة بلايين من الكيلو مترات المربعة فيها الارض المنبسطه ، والأرض المرتفعة ، والهضبة ، والنهر ، والجبل ، كلها فاضلة ، لا أثر فيها لتآمر ، أو مؤامرة ؟

هذا مستحيل !

والمنطق ، خاصة أمام العوامل التى تحيط بالصين ، وخاصة أمام ضيق أمريكا بموقف الصين من كوريا ، وحقد فرنسا على موقف الصين من الهند الصينية ، وخاصة أمام مطامع مغامر كبير ، كتشانج كاى شيك ...

المنطقى أمام هذه العوامل ، أن تكون هناك محاولات ... ان لم تكن لقلب نظام الحكم ، فلاحداث شغب على الاقل ، يوقظ الحانقين ، ويثير عزائم الموتورين ، ويعيد شيئا من الأمل ، الى قلوب المستغلين والمحتكرين ، الذين سلبهم هذا النظام ماكان لهم من نفوذ ، وقوة ، وسلطان .

على أنى لم أجد نفيا قاطعا لهذا الاحتمال ممن تحدثت اليهم من المسئولين والزملاء ، والذى أكدوه أنهم لايخافون شيئا ، لأن وحدة الشعب الصينى وأيمان الشعب الصينى بالحياة الحرة المستقلة السعيدة ، أقوى من مؤامرات المتآمرين .

على أن هذا شىء ، والحقيقة المنطقية ، أن لابد أن يكون هناك محاولات لمؤامرات ، أو مشروعات لاحداث شغب ... شىء آخر .

والدليل القاطع على هذه المحاولات ،ومشروعات المؤامرات ، حادث الطائرة الهندية ، التى احترقت فوق الاراضى الاندونيسية ، فى شهر مايو من عام ١٩٥٥ ، وكانت فى طريقها الى باندونج ، حيث انعقد أول مؤتمر اسيوى افريقى ، وراح ضحيتها عدد من اعضاء سكرتارية الوفد الصينى فى المؤتمر ، واربعة من ألمع الصحفيين الصينيين ، ولم ينج من الركاب الا واحد من الهنود .

والغالب أن هذا الحادث دبر ، على احتمال أن رئيس وزراء الصـــين ، شو ـ اين ـ لاى ، كان محتملا أن يكون فى مقدمة ركاب هذه الطائرة ٠

وقد حاولت أن اتحرى الحادث ، من وجهة النظر الصـــينية ، فعلمت أن المعلومات عن هذه المؤامرة ، وصلت الى علم الحكومة الصينية ، قبل ســـفر الوفد الصينى الى باندونج ، فاتخذت الاحتياطات لاحباط المؤامرة ، وتقرر أن يستقل رئيس الوزراء طائرة أخرى خاصة ، وعن طريق آخـــر مختلف تماما عن الطريق الأول ٠٠٠ وفى الوقت نفسه ، اتصلت الحكومة الصينية، بالحاكم العام لمستعمرة هونج كونج ، وهو بريطانى طبعـــا ، فأكد أنه لن يسمح بمثل هذا ، وان الاجراءات الكفيلة بمنع وقوع أية مؤامرة ســـتتخذ فـــورا ٠

وتقول المصادر الرسمية فى الصين ، ان حاكم مستعمرة هونج كونج ، لم يتخذ أية اجراءات ، فكانت الكارثة ٠٠٠ ولكنها لم تؤد الى الغاية التى رسمت من أجلها ، لأن شو ـ اين ـ لاى ، اتخذ طريقا آخر ، واســـتقل طائرة أخرى ٠

وقد اهتمت الشركة الهندية بالحــــادث اهتماما بالغا ، حتى لاتتـــأثر سمعتها الدولية ، وحتى لايظن أنها واقعة تحت سيطرة المتـآمرين ، وقد ساعدها على هذا ، أن نجا راكب واحد هندى ٠

وشكلت لجنة للتحقيق ، من هنود ، واندونيسيين ، وبريطانيين ، على اعتبار أن الطائرة هنـــدية ، وأرض الحادث اندونيسية ، ومطار القيـــام بريطانى ، فى مستعمرة هونج كونج ٠

وبعد البحث والتحرى الفنى ٠٠٠ ثبت وجود قنبلة زمنية فى ماكينـــة الطائرة ، انفجرت على أرض اندونيسيا ٠

اذن ، فهو حادث مدبر ٠٠٠ واذن ، فلا بد ان تكون هناك يد فاعـل ، امتدت الى ماكينة الطائرة ، لتحدث فيها انفجارا ٠

ولايمكن عقلا ، ان يكون هذا الفاعل ، مدفوعا بعامل شــخصى ... لايمكن أن يكون بينه وبين الطائرة عداء ... أو سوء تفاهم ... ولايمكن أن يكون بينه وبين أحد الركاب دين ، أو منافســة غرامية ، ليقوم بهــذه المغــامرة .

والمطار الذى دبر فيه الحادث ، هو مطار « هونج كونج » ، البريطانى .. حيث يحكم البريطانيون ، ويعيش صينيون ، يعملون فى جميع مرافــق المستعمرة ، ومنها المطار .

ولايمكن عقلا ، أن يكون الصينى الذى دبر الحادث .. او غير الصينى.. من انصار النظام القائم فى الصين ... كما لايمكن ان يكون محايدا

سر اذن من خصوم النظام ، وهو اذن من أنصار نظام آخر .

أو هو مدفوع دفعا ، ممن له مصلحة فى وقوع مثل هذا الحادث .

اذن هناك مؤامرات ، وهناك محاولات ، وهناك مشروعات احداث شغب، فى الصين .

وأنا لايهمنى ماذا ستكون نتيجة الحادث ، من ناحية التحقيق ، ولايهمنى كيف ستتصرف الدولة فى الصين ، سواء مع الهند ، أو اندونيســيا ، أو بريطانيا .. انمــا يهمنى دلالة الحــادث فى ذاته ، من حيث وجود عناصر تحاول ، مدفوعة أو مقتنعة ، أن تشوش على نظام الحكم فى الصين .

هذا رقم احد ...

أما رقم اثنين ، فهو حادث النائب الصينى فنج ...

هذا النائب أنتخب ، حسب قانون الانتخاب فى الصين ، وأصبح عضوا فى مجلس نواب الشعب .

ثم تبين بعد فترة أنه من عملاء تشانج كاى شيك ، فسحب الناخبون منه الثقة ، وسقطت عنه عضوية المجلس ... وحوكم ، وأدخل السجن .

هذا حادث كبير الدلالة قطعا على وجود مؤامرات ، ومتآمرين ، وعملاء ٠

فان النائب فنج ، استطاع أن يتخفى فى ثوب قديس ، وان يكسب ثقة ناخبيـــه ، وأن يتسلل عن طريقهم الى مجلس نواب الشـــعب ، ليعبر عن ارادتهم ويباشر مهمته النيابية باسمهم ٠٠٠٠

ثم يتضح أنه عميل ٠٠٠ لأعدى أعداء النظام ٠٠ تشانج كاى شيك ٠

اذن هناك مؤامرات ، أو مشروعات مؤامرات !

واذن فهناك محاولات شغب ، داخل الصين !

ولكن الحقيقة ان هذه المؤامرات ، أو مشروعاتها ٠٠٠ وهذه المحـاولات ، لم تهز نظام الدولة ، فظل قائما ، يزداد كل يوم قوة ٠

وسواء أكانت هناك متاعب داخلية تواجه نظام الحكم الصينى داخـــل الصين ، أو لم تكن ٠٠ وسواء أكانت هناك مجهـودات تبذل لحمـــاية أمن الدولة فى الصين ، أو لم تكن ٠٠٠ فالحقيقة أن هذا النظام قائم ، مستقر ، ماض فى تنفيذ سياسته ، دون أن يكون لما قد يكون فى داخله من متاعب أو مجهودات ، أدنى أثر على سمعته فى الخارج ٠

* * *

ولنعد الى السؤال الذى سألناه فى أول هذا الفصل

كيف تحكم الصين ؟

ومن الذى يحكمها ؟

وكيف تمضى الثورة الصينية فى طريقها سبع سنوات ، دون ان تجدى فيها المؤامرات ، أو مشروعات المؤامرات ٠٠ ودون أن تهـــزها محاولات القلاقل والشغب والتشويش ؟

أن الزمن فى مصلحة النظام القائم فى الصـــــين ... واحتمال نجاح المؤامرات والمحاولات ، يضعف بمرور الزمن ، فمن أين للنظام بهذه القوة ، التى تجعله يطفو على كل محاولة يقوم بها خصومه ، ويدبرها أعداؤه ؟

أهى الديكتاتورية المستبدة ، تفعل هذا ؟

هل ماوتسى تونج ، رئيس الجمهورية الصـينية الشعبية ، ديـــكتاتور يحكم هذه المساحات الواسعة الشاسعة ، بالحديد والنار ؟

وهل الحكومة المركزية فى بكين ، برئاسة الرجل الذكى شو ـ اين ـ لاى حكومة متعسفة ، كلها عيون ، وآذان ، وجواسيس ؟

أن الصين ، لايحكمها ماوتسى تونج .

ولاتحكمها الحكومة المركزية فى بكين .

ولا يحكمها الحزب الشيوعى ، صاحب الأغلبية .

ولاتحكمها وحدة الاحزاب مع الحزب الشيوعى .

وانما الذى يحكم الصين ... شعب الصين .

شعب الصين ، الذى عاش مئات السنين ، فى جنازات ومآتم ...

شعب الصين ، الذى عاش مئات السنين ، على الدمع ، والحرمان ...

شعب الصين ، الذى عاش مئات السنين ، على المحن ، والهموم ...

أذله أمراء الأقطاع ... سلبوه القوت ، والملبس ، والمســـكن .. كما سلبوه الشرف ، والكرامة ، والكبرياء !

وأذله سيف الاستعمار ... سلبه الحرية ، والشخصية ، والأعتبار .. وكاد يسلبه كل قدرة على النهوض ، بما اشاعه فى البلاد من أفيون !

وأذله جشع الاحتكار ... سلبه الأجر المناسب ، والمكافأة المناسـبة ، والراحة ... وكاد يسلبه كل قدرة على الاعتراض ، بما أخذ يهدد به من تعطل !

وأذلته الثورات ... سلبته الأخ ، والصـــديق ، والولد ... وكادت تسلبه كل أمل فى النصر ، على أعداء البلاد وعملائهم !

وأذلته الحروب الأهلية ... سلبته العمل ، والانتاج ، والـكسب ... وكادت تسلبه كل رجاء ، فى حياة مستقرة ، على أرضه وأرض أجداده !

وأذله فساد الحكم ... وفساد الذمة ... وفساد الضمير !

الفلاح فى قريته ، لاينسى أيام أن كان يعيش على أرض ، لايعرف لمن تؤول غدا .. وجوده فى القرية ، ورزقه من الأرض ، ومصير أسرته .. كل ذلك رهن بارادة الاقطـاعى الأبله ، الذى ورث الأرض ، ومن عليها ، وجمع حوله بعضا من الحثالة ، يستعملهم كرابيج ، يلهب بها ظهور الناس ، وضمائر الناس !

والعامل فى مصنعه ، لاينسى أيام أن كان يعمل طول اليوم ، ويبذل مع جهده ، عرقه ودمه ، ثم يخرج من المصنع لايعرف ان كان سيعود الى عمـله غدا ، أو أن مصيره الى عرض الطريق !

والجندى من قوات البوليس أو الجيش ، لاينسى أيام أن كان يغادر داره فى الصباح ، وهو يودع أولاده وزوجه ... فقد يكون هذا آخر لقاء يلقاهم فيه ... قد يبعثون به الى مكان ثائر ، ليخمد ثورة الثوار ... وقد يلقى هناك حتفه ، تاركا وراءه بطونا خاوية ، وأجساما عارية ، وأرملا ، ويتامى.

والشعب — كل الشعب — كان يمضى كل يوم ... الى مصير مجهول .. لايعرف ماذا سيكون عليه الغد ... من سيفقد ؟ .. ومن سيستقبل ؟ .. من أين تجيئه الضربة القادمة ؟!

أجيال وراء أجيال ، عاشت فى هذه الحقائق المخزية ، وواجهت هـــذه النيران ... وأخذت تتساءل فيما بينها وبين نفسها : متى نهـــدأ ؟ متى نستقر ؟ متى نحيا كما يحيا الناس ، ونعيش كما يعيش الناس ؟ ... نسكن فى بيوت لايهدمها طاغية ، ونباشر أعمــالا ، لايطردنا منـــها شيطان ؟

متى تكون لنا حياة ، كحياة الناس ، وزاد ، ورزق ، وقوت ؟

متى يصبح لنا أمل ، وأمنية ، ورجاء ؟

متى نتحرر من الخوف ، والفزع ، والمصير المجهول ؟

متى نستطيع أن ننام ، ونحن لانخشى من يوقظنافى غياعب الليالى الحالكة الباردة ، ليطردنا من بيوتنا ، أو لينتهك حرماتنا ، أو ليسوقنا الى تحقيق ؟

... واذا اليأس .. هذا اليأس المر كالعلقم ، القارس كالجليد ، يدفع الناس الى تلبية أى نداء .. للخلاص .

وجاء النداء ... أتت به المصادفة ، أو التطور المنطقى والتـــاريخى للحركات الثورية فى الصين .

لقد شهد الشعب ثورة الدكتور صن يات صن ، وأيدها ، وعاش لها ، وبارك وجودها .

ثم رأى الشعب هذه الثورة تنتكس ، وتضعف ، وتهن ... ولكنه ظل يدفعها ، لتعود قوية صلبة ، تحقق فى المرة القادمة ، ما لم تستطع أن تحققه فى المرة الأولى ....

ومات زعيم الثورة صن يات صن ، ولكن الثورة استمرت فى الطريق .. حتى نجحت ، وجن الناس فرحا بها ، وأملا فيها .

ولكن تشانج كاى‌شيك آثر الا أن ينفرد بالأمور .. وحده ! وبدلا من

أن يطرد الاستعمار ، ويحقق وحدة الأمة ، غلبه الاستعمار ، وفرق كلمه الأمة ، فبدا فى نظر الناس ، حاكما مستبدا ، يستهدف بقاء حكمه ، لا تحقيق أمانى الأمة وآمالها ..

ولما اشتدت حاجة الناس الى قائد يملأ فراغ أمانيهم ، كانت جميع الأحزاب قد ضعفت بحيث لم تعد قوة ، تستطيع الوقوف أمام تشانج كاى تشيك ، وتحت آمرته جيش جرار ، وفى حوزته أصدقاؤه الأجانب يساعدونه ويؤيدونه ..

فالجناح الذى يعارضه من حزب الكومنتاج ، ضعيف ، بعد ان أنسلخ عنه عدد كبير من أعضاء الحزب ، مؤثرين الأنضمام الى المنتصر ، صاحب القوة والنفوذ .

والأحزاب الأخرى لم تكن كلها الا منظمات محدودة ، تمثل طبقات مفرقه هنا وهناك .

وظهر الحزب الشيوعى فى الميدان .

ظهر ليقود حركة المقاومة ضد الاحتلال اليابانى ، والنفوذ الأجنبى ، وتشانج كاى شيك .

ظهر قويا منظما ، له كتائب وجنود مدربون ، بل وجيش سماه جيش التحرير .. وخلفه نقابات عمالية ، ونظام تعاونى للريف .... وشعارات تعكس آمال الناس جميعا فى الخلاص من هذا الكابوس ، والعيش فى سلام ، وأمن ، واطمئنان .

لم يدع الحزب الشيوعى الناس أن ينضموا اليه ، ولم يطلب منهم أن يكونوا شيوعيين ... ولكنه طلب منهم أن يتعاونوا معه ، من أجل الاستقلال ، والوحدة ، وخلق مجتمع صينى مستقر ، يحيا فى سلام .

وصادفت الدعوة استجابة ملايين المشتتين فى القرى والجبال ، وملايين المنهكين فى المصانع والمتاجر ، فانتصروا لها وأيدوها .

وتكونت جبهة وطنية ، تضم جميع الأحزاب الوطنية ، وجميع المنظمات السياسية الديموقراطية ، يقودها الحزب الشيوعى ، تمهيدا لوحدة الأمة الصينية ، وتحقيقا لآمال هذا الشعب المكدود .

* * *

ونجحت الثورة ، فى سنة ١٩٤٩ ، وبدأت تحكم الصين .

نجحت لأن أكثر من ستمائة مليون صينى ، أرادوا لها أن تنجح .

نجحت لأن ارادة هذه الملايين الغفيرة ، تغلبت أخيرا على ارادة الاستعمار ، ومع الاستعمار عشرون مليونا من أصحاب الاعمال والمحتكرين .

نجحت لا كمذهب ، ولا كحزب .. ولكن كأمة انتفضت لتتخلص من متاعبها ، وتبحث عن طريق الحياة .

وبدأ الشعب يحكم ، بعد أن أصبح صاحب الارادة ، وصاحب القوة ، وصاحب السيادة ، وصاحب السلطان .

ومن هنا يستقر الأمن فى الصين ، وتنتظم أمور الحكم فى الصين ، وتمضى القافلة فى سلام ، دون أن تتعثر فى الطريق ، أو يلتوى بها القصد .

من هنا تتوحد الأمة الصينية ، فى جمهورية شعبية واحدة ، برغم هذه المساحات التى لاتحد ، وهذه المسافات التى لاتعد ، وهذه الموانع ، وهذه الصخور ، وهذه الجبال .

من هنا تقطع الطريق على أية مؤامرة ، أو مشروع مؤامرة ، أو محاولة لاحداث شغب أو قلاقل .

من هنا تمضى الصين ، بملايينها الستمائة .. فى طابور ..

هذه هى القوة الحقيقة التى تحكم الصين ، وتوحدها ، وتربط أجزاءها جميعا . لأول مرة ، فى تاريخ الصين .

واذا كان هناك شيء يذكر للحزب الشيوعي الصينى ، ولزعيمه ماوتسى تونج بالذات ، فهو أنه فهم حاجات الشعب الصينى مفصلة ، وقدر هذه الحاجات ، وطور المذهب الاشتراكى ، على أساس هذه الحاجات ٠

لم ينقل المذهب الى الصين ، ويقول للناس هــذا هو ٠٠ تشــكلوا أنتم به ، ولكنه اتخذ الناس ، وظروف حيـــاتهم ، وحاجاتهم العامة والاقليمية هى الأساس ، وشكل المذهب عليهم ٠

ولهذا نجح فى التعبير عن حاجاتهم ، فاستطاع لأول مرة ٠٠ توحيدهم

* * *

والآن ٠٠ كيف تحكم الصــين ؟

لقد عرفنا من يحكم الصــين ، ولكن كيف ؟

فى الصين مجلس وطنى لنواب الشعب ، وهو بنص الدستور ، الهيئة العليـا لسلطـة الدولة ، وهو الهيئة الوحيـدة التى تمارس سلطة الدولة التشريعية ، وأعضاؤه منتخبـــون من قبـل المقاطعات والمناطق المستقلة ذاتيـا ، والمـدن التـابعة للادارة المركزية ، ومن قبل القوات المسلحة ، والصينيين المقيمين فى الخارج ٠

ويعقــد المجلس الوطنى لنواب الشعب دورة واحدة كل سنة ، بدعوة من لجنتــه الدائمــة ، على أنه يجوز له عقد دورات فوق العادة ، حسـب الضرورة كما تقدرها لجنته الدائمة ، أو بناء على اقتراح خمس النواب ٠

ولهــذا المجلس حق تعديل الدستور ووضع القوانين ومراقبة تطبيــق الدســتور ، وتقرير ترشيح رئيس الوزراء ، بنـــاء على ترشيح رئيس الجمهــورية ٠٠ وكما أن من حقــه تقرير الترشيح لهذه الوظائف ، فمن حقه أيضا سلطة عزل شاغليها ٠

والمجلس ينتخب رئيس المحكمة الشعبية العليا ، والمدعى العام .. كما يقرر مشروعات الاقتصاد الوطنى ، ويراجع ميزانية الدولة ويوافق عليها ، ويوافق على التقسيم الادارى للمقاطعات والمناطق والمدن لمستقلة ذاتيـا ، والمـدن التابعة للادارة المركزية ، كما يقـرر العفو العام ، وأمر الحـرب والسلم ، ويمـارس الوظائف والسلطات الأخرى التى يرى أنـه ينبغى عليه أن يمارسها .

أما اللجنة الدائمـة للمجلس ، فهى التى تدير الانتخـاب ، وتدعو الى عقـد دورات المجلس ، وتشرح القوانين ، وتضم المراسيم ، وتراقب عمـل مجلس الوزراء ، ويسمى هنـاك مجلس الدولة ، كما تراقب أعمال المحكمة العليـا والنيـابة العليـا ، وتلغى قرارات مجلس الدولة ، التى تخالف الدسـتور والقوانين ، كما أنها تعين وتعزل نواب رئيس المحـكمة العليـا والقضاة ، وكذلك تعين وتعزل نواب المدعى العام ، والنائبين العموميين ، وتتخذ القرارات بصـدد تعيين وعزل الممثلين المطلقى التفويض لدى الدول الأجنبيـة ، كما تتخـذ القرارات المتعلقة بابرام والغاء المعاهدات المعقودة مع الـدول الأجنبيـة ، وتقرر العفو الخاص ، وتضـع الألقـاب والرتب العسكرية والديبلوماسية ، وتضع أوسمة الدولة وتقرر منحها ، وتتخـذ قرارات التعبئـة العـامة أو الجزئية ، كمـا تتخذ قرارات اعلان الأحـكام العرفية فى عموم البلاد أو قسم منها .

وفى الفترة الواقعة بين دورتين من دورات المجلس ، تتخـذ القـرارات حول تعيين وعزل نواب الوزير الأول ، والـوزراء ، ورؤسـاء اللجان ، ورئيس الأمانة العامة لمجلس الدولة ، كما تقرر اعلان حالة الحرب عندما تكون البلاد عرضة لهجوم مسلح ، أو عندما تتطلب الحالة تنفيذ المعاهدات الدولية للدفاع المشترك ضد العدوان .

واخيرا فلهـذه اللجنة أن تتولى الوظائف والسلطات التى يقلدها اياها المجلس الوطنى ، وهى مسـئولة أمامه ، وعليها أن تقدم اليه تقريرات عن أعمالها ، وللمجلس حق عزل أعضاء لجنته الدائمة ، واختيار سواهم .

ونواب المجلس الوطنى خاضعون لمراقبة الوحدات التى تنتخبهم ، ولهذه الوحدات سلطة استبدالهم فى كل حين .

ومدة المجلس أربع سنوات .

.. أنا أنقل هنا عن نصوص الدستور الصينى ، وأرجو أن يلاحظ القراء فى النص على جواز استبدال النواب ، كلمة الوحدات ، فسنعود اليها عندما نعرض لقانون الانتخاب الصينى ، وهو عادة مكمل للدستور ، أى دستور .

أما رئيس الجمهورية ، فيشترط ألا تقل سنه عن الخامسة والثلاثين ، وهو الذى يصدر القوانين والمراسيم ، ويعين ويعزل الوزير الأول ونوابه والوزراء اللجان ورئيس الأمانة العامة لمجلس الدولة ، ويعين ويعزل نواب رئيس مجلس الدفاع الوطنى وأعضاءه ، ويمنح أوسمة الدولة وألقاب الشرف ، ويصدر مراسيم العفو العام والخاص ، ويعلن الأحكام العرفية ويعلن حالة الحرب ، ويصدر أوامر التعبئة ، بناء على قرارات المجلس الوطنى ، أو لجنته الدائمة .

ولرئيس الجمهورية حق تمثيل الجمهورية فى ميدان العلاقات الدولية ، ويقبل ممثلى الدول الاجنبية الديبلوماسيين ، بناء على قرارات المجلس أو لجنته الدائمة ، ويرسل الممثلين المطلقى التفويض لدى الدول الأجنبية ويستدعيهم ، ويبرم المعاهدات .. وهو القائد الأعلى لقوات البلاد المسلحة ، ورئيس مجلس الدفاع الوطنى .. وله أن يدعو فى حالة الضرورة الى عقد مؤتمر الدولة الأعلى ويرأسه ، وهذا المؤتمر يشترك فيه نائب رئيس الجمهورية ، ورئيس اللجنة الدائمة للمجلس الوطنى ، والوزير الأول ، وغيرهم من الأشخاص التى تستدعى الحالة دعوتهم ، ورئيس الجمهورية هو الذى يعرض قرارات مؤتمر الدولة الأعلى على المجلس الوطنى أو لجنته الدائمة أو مجلس الدولة أو الهيئات الأخرى لبحثها ، واتخاذ القرارات بشأنها .

أما مجلس الدولة فهو بنص الدستور الهيئة التنفيذية العليا لسلطة الدولة ، والهيئة الادارية العليا للدولة ، وهو يتألف من الوزير الأول ، ونوابه ، والوزراء ، ورؤساء اللجان ، ورئيس الأمانة ، ومن وظائفه تقرير التدابير الادارية ، واصدار القرارات والأوامر ، ومراجعة تنفيذ هذه القرارات والاوامر .

ومجلس الدولة مسئول أمام المجلس الوطنى ، وفى الفترة الواقعة بين دورتين من دوراته ، يكون مسئولا أمام لجنته الدائمة .

هذا هو الجهاز الرئيسى العام للدولة ، على أن التقسيم الادارى ، يكمل هذا الجهاز ويتعاون معه.. والدستور ينص على تقسيم البلاد الى مقاطعات ، ومناطق مستقلة ذاتيا ، ومدن تابعة للادارة المركزية .. وتقسم المقاطعات والمناطق المستقلة ذاتيا ، الى ولايات مستقلة ذاتيا ، ومراكز ، ومراكز مستقلة ذاتيا ، ومدن .. وتقسم المراكز المستقلة ذاتيا ، الى بلدان ، وبلدات قومية ، وقرى .. وتقسم المدن التابعة للادارة المركزية والمدن الكبيرة نسبيا ، الى دوائر .. والولايات المستقلة ذاتيا مقسمة الى مراكز ، ومراكز مستقلة ذاتيا ، ومدن .

ونص الدستور كذلك على أن المناطق المستقلة ذاتيا ، والولايات المستقلة ذاتيا ، والمراكز المستقلة ذاتيا ، كلها أقاليم استقلال ذاتى قومى .

ولكل مقاطعة ، ومدينة تابعة للادارة المركزية ، والمراكز ، والمدن ، ودوائر المدن ، والبلدات ، والبلدات القومية ، والقرى ، مجلس لنواب الشعب ، ولجنة شعبية .

وتقام فى المناطق المستقلة ذاتيا ، والولايات المستقلة ذاتيا ، والمراكز المستقلة ذاتيا ، هيئات استقلال ذاتى .

ومدة مجالس المقاطعات أربع سنوات ، وما عداها من مجالس مدتها سنتان ، ومهمة هذه المجالس أن تضمن فى مناطقها الادارية ، التقيد بالقوانين والمراسيم وتنفيذها وترسم البناء المحلى الاقتصادى والثقافى والأعمال العامة ، وتراجع وتوافق على الميزانيات المحلية وتحمى الأملاك

العــامة ، وتحافظ على النظام العام ، وتحمى حقوق المواطنين ، وتضمن للأقليات القومية المساواة فى الحقوق ٠

كما أن كل مجلس من هذه المجالس ينتخب أعضاء اللجنة الشعبية التى تنـاظره فى الدرجة ، وله سلطة عزلهـم ، وكذلك ينتخب رئيس المحكمة الشعبية التى تناظره فى الدرجة ، وله سلطة عزله ، ويجوز لهذه المجالس أن تتخذ تدابير خاصة مناسبة للخصائص القوميـة ، ولها سلطة تعـديل القرارات والأوامر غير الملائمـة التى تتخذها اللجان الشعبية التى تناظرها ولكل مجلس من مجالس نواب الشعب فى المراكز فما فوقها سلطة تعديل أو الغاء القرارات غير الملائمة التى تتخذها مجالس النواب التى تليهـا فى الدرجة ، وكذلك القرارات والأوامر غير الملائمة التى تتخذها اللجان الشعبية التى تليه فى الدرجة ٠

والنواب فى مجالس نواب الشعب ، للمقاطعات ، والمدن التابعة للادارة المركزية ، والمراكز ، والمدن المقسمة الى دوائر ، يخضعون لمراقبة الوحدات التى انتخبتهم ، والنواب فى مجالس المـدن غـير المقسمة الى دوائر ، وفى دوائر المدن ، والبلدات ، والبلدات القومية ، والقرى ، يخضعون لمراقبـة ناخبيهم ، وللوحدات والناخبين سلطة استبدال نوابهم فى كل حين ٠

ولعـله أصـبح غنيا عن البيان الآن أن المقصود باللجان الشعبية ، أنها حكومات محلية ، تمثـل الهيئات التنفيذية للمجالس المحلية ، وكلها تكون هيئات الدولة الادارية المحلية ٠

وهـذه اللجان تتألف من رؤساء ، ونواب رؤساء ، وأعضاء ، وقد نص الدستور ، على أن مدة كل منها ، هى نفس مدة المجالس النيابية المحلية التى تناظرها ، وعليها أن تنفذ قرارات هذه المجالس ، وقرارات الهيئات الادارية التى تفوقـها فى الدرجـة ، وهى كذلك مسـئولة أمامهـا ٠٠ وجميع هذه الوحدات الادارية ، خاضعة لمجلس الدولة ٠

وهناك ناحيـة هامة جدا ، من نظام الحكم فى الصـين ، وهى الناحيــة المتصـلة بهيئات الاستقلال الذاتى ، وعلاقتها بالقوميات المختلفة ٠

وفيما يلى نصوص الدستور عن هذه الهيئات :

نص الدستور على أن تنظيم هيئات الاستقلال الذاتى ، فى المناطق المستقله ذاتيا ، وفى الولايات المستقلة ذاتيا ، وفى المراكز المستقله ذاتيا ، ينبغى أن تتلاءم مع المبادىء الأساسية لتنظيم هيئات الدولة المحلية ، ويجوز أن يحدد شكل كل هيئة على حسب رغبة أكثرية شعب القومية أو القوميات التى تتمتع بالاستقلال الذاتى ، وفى هيئات الاستقلال الذاتى ، حيث تختلط قوميات عديدة ، ينبغى أن يكون لكل قومية عدد مناسب من الممثلين ٠

وهيئات الاستقلال الذاتى ، تمارس وظائف وسلطات هيئات الدولة المحلية ، وتدير فى مناطقها وولاياتها ومراكزها المحلية الخاصة ، وتنظم قوات الأمن المحلية الخاصة ، وفقا لنظام الدولة العسكرى ، ويجوز لها أن تضع لوائح وفقا للخصائص السياسية والاقتصادية والثقافية للقومية أو القوميات المحلية ، على أن تعرضها على اللجنة الدائمة للمجلس الوطنى للموافقة عليها ، وعلى هيئات الاستقلال الذاتى ، أن تستخدم اللغة أو اللغات المنطوقة والمكتوبة التى تتداولها القومية أو القوميات المحلية ٠

ونص الدستور على أنه ينبغى على هيئات الدولة العالية فى الدرجة أن تضمن تماما لهيئات الاستقلال الذاتى ممارسة الاستقلال الذاتى ، وأن تساعد الأقليات القومية على تطوير أعمال البناء السياسى والاقتصادى والثقافى ٠

***

أما عن النظام القضائى فى الدستور الصينى ، فهو أن تباشر المحكمة الشعبية العليا والمحاكم الشعبية المحلية ، والمحاكم الشعبية الخاصة ، السلطة القضائية ، على أن تكون مدة سلطات رؤساء المحاكم أربع سنوات ٠

ونص الدستور على تطبيق نظام محلفى الشعب ، عند نظر الدعاوى ٠

وتراقب المحكمة الشعبية العليا النشاط القضائى فى المحاكم المحلية والخاصة ، ولكل محكمة سلطة مراقبة المحكمة التى تليها فى الدرجة ، وكل محكمة من هذه المحاكم مسئولة أمام المجلس النيابى الذى يناظرها ٠

أما النيابة العمومية الشعبية العليا ، فتمارس سلطة المراقبة على

الادارات التابعة لمجلس الدولة ، وعلى هيئات الدولة المحلية ، وعلى العاملين فى هيئات الدولة ، وعلى المواطنين ، لضمان التقيد بالقانون ، وكل نيابة تعمل تحت قيادة النيابة التى تفوقها فى الدرجة ، وجميعها تعمل تحت القيادة الموحدة من قبل النيابة العمومية الشعبية العليا ، ومدة سلطة المدعى العام أربع سنوات ٠

والنيابة العمومية العليا مسئولة أمام المجلس الوطنى لنواب الشعب ، وفى الفترة الواقعة بين دورتين ، تكون مسئولة أمام لجنته الدائمة ، وعليها أن تقدم التقارير عن نشاطها ٠

أما وحدات النيابة العمومية دون ذلك ، فلم ينص الدستور الصينى على مسئوليتها أمام المجالس النيابية المحلية ، كما نص على المحاكم ٠

* * *

هذه هى نصوص الدستور ، التى تحدد النظام العام للدولة ، وجهازها الادارى ، وأقسامه ، والصلات التى تربط كل قسم بالآخر ٠

وواضح أن النظام راعى الطبيعة الصينية ، والمصالح الاقليمية ، القومية الخاصة ٠٠ ليضمن سيادة النظام والقانون ، عن طريق اشراك كل وحدة من وحدات الدولة ، من منشوريا الى الساحل الجنوبى ، فى تحمل المسئولية ٠

وقد رأينا ان الدولة قسمت الى وحدات صغيرة ، تتدرج صعودا ، فى شكل هرمى ، حتى تصل نيابيا الى المجلس الوطنى لنواب الشعب ، وتنفيذيا حتى تصل الى الحكومة المركزية ، وقضائيا حتى تصل الى المحكمة الشعبية العليا ، والنيابة العمومية الشعبية العليا ٠

وأصغر الوحدات هى القرى ، والبلدات القومية ، وهى مكونة من مجموعة قرى ، ودوائر المدن ، والمدن غير المقسمة الى دوائر ٠

وهذه الوحدات تنتخب نوابها انتخابا مباشرا ٠

وهذا هو الانتخاب المباشر الوحيد ، فى النظام الصينى ٠

هذا الهرم يعطي فكرة عن الطريقة التي تحكم بها الصين

وبعد هذا تتدرج الوحدات ، فترتفع الى مجالس للمدن المقسمة الى دوائر ، والمراكز ، والمدن التابعة للأداة المركزية ، والمقاطعات .

وأعضاء هذه المجالس تنتخبهم المجالس الصغرى ، ثم تنتخب هذه المجالس بدورها ، أعضاء المجلس الوطنى لنواب الشعب .

وكل المجالس بدورها تتسلسل فى المسئولية ، من أسفل الى أعلا ، بحيث يكون لكل مجلس سلطة مراجعة المجالس الصغرى التى تليه ، بأن تلغى قراراتها أو تعدلها .. حتى ينتهى التدرج الى المجلس الوطنى الأعلى ، وهو كما ينص الدستور ، الهيئة العليا لسلطة الدولة .

ويقابل كل مجلس من هذه المجالس لجنة شعبية ، كهيئة تنفيذية فى الدائرة التى تتولى شئونها .. وكل لجنة من هذه اللجان مسئولة أمام قوتين .. الأولى المجلس النيابى المحلى الذى يناظرها ، والثانية اللجنة الشعبية التى تفوقها فى الدرجة ..

ويمضى التسلل فى تحمل المسئولية ، والاختصاص ، حتى ينتهى الى الحكومة المركزية ، وهى بدورها مسئولة أمام المجلس الوطنى لنواب الشعب .

ونفس النظام متبع فى المحاكم ، يتدرج من محكمة الى المحكمة التى تفوقها فى الدرجة ، وهى فى جميع الحالات مسئولة أمام المجلس النيابى الذى يناظرها ، والمحكمة التى تفوقها ، حتى ينتهى الأمر الى المحكمة العليا ، وهى مسئولة أمام المجلس الوطنى .

وكذلك الأمر بالنسبة للنيابات ، تتدرج من أسفل الى أعلا ، حتى تنتهى الى النيابة العمومية الشعبية العليا ، وهى مسئولة أمام المجلس الوطنى .

والامتياز الوحيد الذى تتمتع به النيابة ، حتى على القضاء ، هو أعضاء النيابات المحلية ، من المسئولية أمام المجالس النيابة التى تناظرها ، وجعل هذه المسئولية مركزة فى النيابة العمومية العليا ، وأمام المجلس الوطنى للنواب .

ونظام الانتخاب فى الصين قائم على الأسس التالية :

● كل مواطن يبلغ من السن ١٨ عاما ، من حقه أن ينتخب وينتخب ، ما عدا أفراد طبقة ملاك الأراضى ، وأعداء الثورة الممنوعين من هذا الحق ، والمصابين بالأمراض العقلية ، ولكل ناخب صوت واحد .

● **للقوات المسلحة الحق فى اجراء انتخابات مستقلة ، بقواعد منفصلة عن النظام الانتخابى العام .**

● تتحمل الدولة نفقات الانتخابات ..

● **المجالس الصغرى فى القرى تتم فيها انتخابات مباشرة على الأسس التالية :**

أ ـ اذا لم يزد عدد الناخبين عن ٢٠٠٠ ، ينتخب من ١٥ الى ٢٠ عضوا . فاذا زاد عن ٢٠٠٠ ينتخب من ٢٠ الى ٣٥ عضواً ، ولا يقل عدد الأعضاء المنتخبين عن ٧ ، مهما صغر عدد الناخبين ، ولا يزيد عن ٥٠ ، مهما زاد عدد الناخبين .

● **المجالس من الدرجة التالية ، وهى مجالس المدن والمراكز تنتخب على الأساس التالى :**

أ ـ اذا لم يزد العدد عن ٢٠٠ر٠٠٠ ينتخب من ١٠٠ الى ٢٠٠ عضو ، وفى حالة زيادة العدد ينتخب من ٢٠٠ الى ٣٥٠ عضو ، ولا يجوز أن يقل العدد عن ٣٠ ، مهما قل العدد ، ولا يزيد عن ٤٥٠ مهما زاد العدد .

● **تمثل المجالس الصغرى فى مجالس المدن المراكز كما يأتى :**

أ ـ اذا قل العدد عن ٢٠٠٠ ينتخب عضو واحد ، فاذا زاد الى ٦٠٠٠ ينتخب عضوان ، فاذا زاد ينتخب ثلاثة أعضاء

ب ـ فى المدن ينتخب عضو عن كل ٥٠٠ ناخب ، وكذلك فى بعض البلاد ، والأحياء الصناعية الهامة ، ولا يجوز انتخاب عضو فى الأحياء التى يقل ناخبوها عن ٥٠٠ ، اذا انخفض العدد عن ٢٥٠ ، وفى الأماكن المزدحمة بالسكان ، ينتخب عضو عن كل ١٠٠٠ ناخب .

جـ ـ يمثل القوات المسلحة فى كل مجلس من ١ الى ٥ نواب .

● مجالس المقاطعات أو مجالس الدرجة الثالثة ·

أ ـ اذا كان العـدد ٢٠ مليون فأقـل ينتخب من ١٠٠ الى ٤٠٠ نائب ، فاذا زاد العدد عن هذا ، أصبح عدد النواب من ٤٠٠ الى ٥٠٠ ، ولا يجوز أن يقل عدد النواب عن ٥٠ على أى حال ، ولا أن يزيد عن ٦٠٠ ·

● تمثـل مجالس الدرجة الثانية فى هذه مجالس الدرجة الثالثة عـلى الوجه التالى :

أ ـ اذا قل العدد عن ٢٠٠ر٠٠٠ ، ينتخب من ١ الى ٣ ، فـاذا زاد الى ٦٠٠ر٠٠٠ ينتخب من ٢ الى ٤ نواب ، فاذا زاد عن هذا ينتخب من ٣ الى ٥ نواب ·

ب ـ ينتخب عضو واحد عن كل ٢٠ر٠٠٠ ، ولا يجوز انتخاب عضو عن عدد يقل عن عشرة آلاف ·

جـ ـ تمثـل القوات المسلحة فى هذه المجالس بعدد بين ٣ و ١٥ نائب ·

● المجالس البلدية وهى مجالس من الدرجة الثالثة أيضا :

أ ـ اذا لم يزد عدد الســكان عن ١٠٠ر٠٠٠ ، ينتخب عضو يمثـل من ٥٠٠ الى ١٠٠٠ ، فاذا زاد عدد الســكان حتى ٣٥٠ر٠٠٠ ينتخب عضـــو يمثـل من ١٠٠٠ الى ٢٠٠٠ ، فاذا زاد العدد الى ٧٥٠ر٠٠٠ ينتخب عضو يمثـل من ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ ، فاذا زاد العــدد الى ١ر٥٠٠ر٠٠٠ ينتخب عضو يمثـل من ٣٠٠٠ الى ٥٠٠٠ ، فاذا زاد العدد عن هذا انتخب عضـو يمثـل من ٥٠٠٠ الى ٧٠٠٠ شخص

ب ـ لا يجوز أن يقل عدد النواب عن ٥٠ ، ولا يزيد عن ٨٠٠

جـ ـ تمثـل القوات المسلحة فى هذه المجالس بعدد بين ٢ و ١٠

د ـ المجالس البلدية فى الأحيـاء ينتخب اليـها نائب يمثـل من ٥٠٠ الى ٢٠٠٠ شخص ، ولكن عـدد أعضاء هذه المجالس لا ينبغى أن يقل عن ٣٥ ولا يزيد عن ٢٠٠

● **المجلس الوطنى لنواب الشعب .**

أ - ينتخب أعضاء هذا المجلس ، بواسطة مجالس المقاطعات ، ومجالس البلديات التابعة رأسا للحكومة المركزية ، والمجالس البلدية فى الأماكن الصناعية التى لا يقل عدد سكانها عن ٥٠٠ر٠٠٠ ، والوحدات الادارية للأقليات التابعة للحكومة المركزية ، والقوات المسلحة ، والجاليـــات الصينية خارج الصين .

ب - تنتخب مجالس المقاطعات ، على أساس تمثيـــل كل ٨٠٠ر٠٠٠ ، بنائب واحد ، على ألا يقل عدد ممثـلى أية مقاطعة عن ثلاثة نواب .

ج - تنتخب الوحدات الأخـرى ، غير مجـالس المقاطعات ، على أساس تمثيل كل ١٠٠ر٠٠٠ بنائب واحد .

د - تمثل القوميات الصينية فى المجلس الوطنى بـ ١٥٠ نائبا .

هـ - تمثـل القوات المسلحة بـ ٦٠ نائبا .

و - تنتخب الجاليات الصينية خارج الصـين ٣٠ نائبا للمجلس الوطنى لنواب الشعب .

* * *

ويمضى قانون الانتخاب الصينى بعد هذا ، فيتناول الأقليـات مضيفا ضـــمانات أكثـر ، وامتيازات أوسع ، حرصا على تمثيلهم فى المجالس النيابية ، على درجاتها المختلفة .

ثم يتناول الترشيح للانتخابات فيعطى الأحـزاب والمسـتقلين حـق الترشيح لعضوية المجالس النيابية المختلفة ، اما مجتمعين أو متفرقين . ولا يقتصر حق انتخاب النـواب فى مجلس ما ، بواسـطة المجالس التى تليـه ، على أعضاء المجالس الأخـيرة ، وانما يترك هذا الحق مفتـوحا ، لمرشحى الأحزاب ، وللمستقلين ، أو لمن يراهم كل مجلس أصلح للتمثيل النيـــابى .

ويعطى القانون الناخب الحـق فى أن يتقيـد بهـؤلاء المرشـحين ، أو لا يتقيد ، فينتخب من يرآه أصلح لعضوية المجلس .

ولا يصح انتخاب عضو فى مجلس ما ، ما لم يحصل على أكثر من نصف أصوات الناخبين ، والا أعيدت عملية الانتخابات ٠

وللناخبين والوحدات النيابية ، حق سحب النائب واستبداله بسواه ٠

وأعطى القانون الحكومات المحليــة الحق فى وضــع أية قواعد انتخابية تراها ناقصة فى هذا القانون ، بالنسبة لظروفها ، بشرط موافقة الحكومة المركـزية ٠

* * *

وهــكذا نرى أن قانون الانتخــاب قــد راعى ظروف البلاد ، ووضــع القوميات المختلفة فيها ، كمــا راعى النسبة العددية ، وحافظ على التدرج فى الصــعود من درجة الى درجة ، من درجات التمثيل النيابى ٠

والمجلس الوطنى فى الصــين الآن مكون من ١٢٢٦ نائب ، منهم ٦٠٪ من أعضاء الحزب الشيوعى ، و ٤٠ ٪ غير شيوعيين ٠

فللحزب الشيوعى فى المجلس ٦٦٧ نائب ، يليه المستقلون ولهم ٢٨٠ نائب ، ثم تتتابع الأحزاب المختلفة بعد ذلك ، فللجناح الثورى من حزب الكومنتاج ٥٨ نائب ، وللعصبة الديموقراطية ٩٠ نائب ، ولجمعية الانشاء الديموقراطى ٦٦ نائب ، ولجمعيــة تنمية الديموقراطية ١٧ نائب ، ولحزب الفلاحــين والعمال الديموقراطيين ١٣ نائب ، ولحزب تشكونج وهو حزب الجاليــات الصينية خارج الصـــين ٥ نواب ، ولجمعيــة ٣ سبتمبر ، يوم استسلام اليــابان فى الحرب ٢٤ نائبا ، ولحــزب تايــوان نائب واحــد ، وللشبيبة الديموقراطية ٥ نواب ٠

ويلاحظ ورود كلمــة جمعية فى معرض التمثيل النيابى ، والواقع أن هذه الجمعيات منظمات سياسية ، تستند الى أسس تاريخية ، وترجع الى أيام الثــورة ، ضد الاستعمار اليــابانى ، والنفــوذ الأجنبى ، وحــكم الكومنتـــاج ٠

ويلاحظ أيضا أن حزب الجاليات الصينية خارج الصين له خمس نواب ، فى حــين ينص قانون الانتخاب ، على أن يكون لأبناء هذه الجاليات ثلاثون نائبــا ، ولــكن قانون الانتخاب نفســه ينص على أنه فى حالة نجاح اى

نائب من الأقليـات التى ينص القانون على أن تمثـل بعدد معين ، فانـه لا يحسب على هذا العدد ، وانما يستمر العدد الأصلى مشروطا فى المجلس ، مضافا اليه أى نائب ينجح بطريق آخر من طرق التمثيل النيـابى ، سواء أكان ذلك عن طريق حزبه ، أو منظمتـه السياسية ، أو عن طريق ثقـة الوحدات السياسية به .

* * *

ولعل من الخير أن نعطى صورة سريعة عن أحزاب الصـين ، التى تقف بجانب الحزب الشيوعى ، وتتحد معه فى جبهـة قومية ، موحدة السبل ، موحدة الغاية .

وأقدم هذه الأحزاب ، هو الجناح الثورة فى حزب الكومنتاج القديم ، الذى أسسه الدكتور صن يات صن أبو الثورة الصينية .. وهذا الجناح ، هو الذى أعلن العصيان على تشـانج كاى شيك ، لما انحرف به الطريق ، واستند الى تأييد الدول الأجنبية ، وغدر بحلفائه من الشيوعيين ، فبـدد النصر الأول الذى حققته الثورة ، وتسبب فى خـلافات قوميـة كبرى ، أخرت الانتصار النهائى للثورة بضعة عشرات من السنين .. وقد انضمت الى هذا الجنـاح السيدة زوجة المرحـوم الدكتو صن يات صن ، وأعلنت انحراف تشانج كاى شيك عن مبادئ الحـزب .. وهـذه السيدة تشغل الآن منصب نائب رئيس اللجنة الدائمة للمجلس الوطنى لنواب الشعب .

ثم العصبة الديموقراطية ، وهى منظمة سياسـية كبـيرة ، أو حـزب سياسى كبير ، تكون منذ عشرات السنين ، لينـظم صفوف الطبقة المثقفة ، خاصة طبقة المعلمين .. وقد نجح فى تنظيمه ، وتعاون مع الحزب الشيوعى فى تعبئة الشـعور العام واشعال الثورة .

ثم الاتحاد الديموقراطى ، ويضم الطبقة البورجوازية الوطنية ، المتقدمة فكريا ، والتى آمنت أن وجـود الاستعمار والرجعيـة لا يمكن أن يحقق مصـالحها ، ولا مصالح غيرها من الوطنيـين ، فانتظمت وكونت اتحادا سياسيا ، يتعاون مع الوطنيين فى تدبير الثورة والسير بها الى النجاح .

والطليعة الديموقراطية الصينية ، وهى منظمـة أخرى ، كونها المعلمون

في المدارس ، ليساهموا بدورهم فى الاعـداد للثـــورة ، والتخلص من الاستعمار والرجعية •

وحزب العمـــال والفلاحين الديموقراطى ، وهو يمثل الطوائف الفنية ، خاصة فى الحكومة ، وكان له دور كبير فى مساعدة الحـركات الوطنيـــة ، من داخل الجهاز الحكومى نفسه •

وحزب تشيكونج ، وهو يمثـــل الصينيين المهاجرين ، خاصة الى أمريكا الجنوبية ، وقد كان له دوره فى الدعاية للثورة فى الخارج ، وتمهيد الأذهان لقبــــولها •

وجمعية ٣ سبتمبر •• وهو يوم استسلام اليـــابان فى الحـرب •• اتخذ العلماء الصينيون هذا التاريخ اسما لجمعيـــة سياسية تضمهم ، وتكافح مع المكافحين من أجل الاستقلال والوحدة •

ثم أخيرا حزب تايوان الديموقراطى ، وتايوان كما عرفنـــا هـــو الاسم الصينى لجزيرة فورموزا ، وهذا الحـــزب ينادى بتحرير تايوان ، واعادتها الى أمها الأصلية : الصين •

هذه هى الأحزاب الأخرى ، غير الحزب الشيوعى الصينى •

وقد اتحدت هذه الاحزاب جميعا ، مع الحزب الشيوعى ، وتعاونت معه على التمهيد للثورة ، ثم على اشعالها ، ثم على نجاحها •

فلما نجحت الثورة سنة ١٩٤٩ ، كان الحزب الشيوعى يستطيع ببساطة أن يضعها أمام الأمر الواقع ، وينفرد وحده بالسلطان •

ولكن الذى حدث هو أن الحزب الشيوعى كان أذكى من أن يفعل هذا •• فلم ينفرد بالأمر ، ولم يتجاهل وجـــود الاحزاب ، ولم يهمل اتجاهاتها ، ولم ينس أن مثل هذا التصرف ، هو الذى أطاح بتشانج كاى شيك •

وتكون مجلس الشورى فى يونيـــو ١٩٤٩ ، من جميـــع الأحـــزاب والمؤسسات الشعبية ، ومن جيش التحـــرير ، ومن نواب المناطق والأديان والأقليات والجاليات الصينية فى أنحاء العالم •

واتفقت الكـلمة على أن يقوم هـــذا المجلس مقـــام البرلمان حتى ينعقـــد

البرلمان ، وأن يضع أسسا عامة لسياسة الدولة فى الداخل والخارج ، تكون دستورا للحكم .

وانتخب هذا المجلس رئيس الجمهورية الصينية ، واعضاء الحكومة المركزية ، حتى يجتمع البرلمان . كما انتخب رئيس المحكمة الشعبية العليا ، والنائب العمومى .

أما الدستور الذى وضعه هذا المجلس ، فلم يكن اكثر من أربع مبادىء ، اساسها قيادة الطبقة العاملة ومحالفة العمال والفلاحين .. ثم اعادة بناء الدولة على أساس اشتراكى ، وحمايتها من أعداء الشعب فى الداخل والخارج .

واتفق كذلك على أن تعمل الجبهة القومية بقيادة الحزب الشيوعى الصينى

ولعل هذا البرنامج المحدود ، يقوم دليلا لا شك فيه على أن الحزب الشيوعى الصينى ، اتخذ منهجا جديدا فى تطبيق المبادىء الاشتراكية .

فهو أولا قبل اشراك الأحزاب معه فى تحمل المسئولية ، حتى فى الحكم .

وهو ثانيا قبل الابقاء على رأس المال الوطنى ، والبورجوازية الصغيرة ، على أساس أن يتحول ذلك كله ، فى نطاق التحويل الاقتصادى العام ، الى الاشتراكية بطريق سلمى تدريجى .

ولما تكون مجلس الدولة ، أو مجلس الوزراء انضم اليه ١٣ وزيرا من غير أعضاء الحزب الشيوعى ، من مجموع الوزراء ورؤساء المجالس ، وهم فى حكم الوزراء ، وبهذا كانت نسبة الوزراء الشيوعيين فى مجلس الدولة ٦٦ ٪ ، ونسبة بقية الأحزاب والمستقلين ٣٣ ٪

والنظام الصينى يؤمن بالنيابات ، فلكل وزير نواب ، ولكل مدير نواب ، ولعمد المدن نواب .. وحتى نظار المدارس ، وعمداء الكليات ، لهم نواب .

والفكرة قائمة ، على أن يكون رئيس أى تنظيم رجلا عاما ، تتمثل فيه ارادة شعبية ، دون أن تقيد هذه الارادة بقيود ضيقة .. وفكرة النواب

تعوض أى خطأ عساه يقع فى التمثيل الشعبى ، ثم هى فى الوقت نفسه توزع المسئوليات والاختصاصات بحيث تصبح عاملا من عوامل الدقة فى التنظيم •

وللوزراء فى الصين ١٨١ نائبا ، ٨٤ ٪ منهم من الحزب الشيوعى ، و١٥ ٪ من غير الحزب الشيوعى •

هذا العدد الضخم من نواب الوزراء ، هو الذى يتولى المسئوليات الادارية فعلا ، ويوفر للوزراء مهمة مباشرة مسئولياتهم السياسية ، دون أن تثقلهم الادارة والجزئيات •

فلما تم وضع الدستور ، وأقره مجلس الشورى ، وتم وضع قانون الانتخاب ، وأقره المجلس بدوره ، ودعى أول مجلس وطنى لنواب الشعب ، وأقر الدستور ، ومشروع الخمس سنوات ، اعتبرت مهمة مجلس الشورى منتهية ، نظرا لأن الدستور تضمن أسس الحكم فى صلبه •• كما صدر قانون الخمس سنوات ، لبناء الدولة بناء اقتصاديا ، **فلم يعد هناك مبرر اذن لاستمرار بقاء مجلس الشورى ، والا كان مجرد وجوده ، منازعة للبرلمان فى اختصاصاته ، وتوزيع للجهد لا مبرر له •**

على أنه لم يحل •• كحقيقة تاريخية ! وانما استمر قائما ، كهيئة استشارية لمجلس الدولة من ناحية ، وللبرلمان من ناحية أخرى •

فأما مجلس الدولة ، فانه يستعين بآرائه فى كثير من القوانين ، لأنه يمثل وجهات النظر المتباينة فى الأمة •• وبهذا يضمن أن تصدر قراراته وقوانينه ، متفقة مع مختلف تيارات الرأى فى الأمة •

وأما البرلمان ، فصلة مجلس الشورى به الآن لا تعدو أنه يشير على المجلس عندما تدعو الحاجة الى مشاورة •• واكثر صلات هذا المجلس بالمجلس الوطنى ، عن طريق لجنته الدائمة •

ثم مهمة أخرى لمجلس الشورى ، هى أنه يوحد سياسة الأحزاب ، فى مواسم الانتخابات ، فيتفق ممثلو الأحزاب على قائمة موحدة ، لعرضها على الناخبين ، والمجالس الصغرى ، لانتخابات أعضاء المجلس الوطنى •• وقد تضمنت القائمة الأولى عددا كبيرا من المستقلين •

فى الصــين اذن أحزاب .. متفقة الطريق موحدة الغاية .

أحزاب اتفقت على قيــادة الحــزب الشيوعى .. واتفقت على التصنيع الاشتراكى ، واتفقت على برنامج الخمس ســنوات ، وهو يقضى بتحويل الأعمال الخاصة الى نظام اشــتراكى بالتــدريج .. واتفقت على قانون الاصلاح الزراعى ، وهو قانون منع ملكية الأرض ، الا فى حدود القانون .

اذن فيم قيامها ... وكلها اشتراكية ؟ !

فيم اختلافها ، وهى متفقة على أسس الحكم ؟ !

لم لا تصبح حزبا واحدا ، فتندمج جميعها فى الحزب الشيوعى الصينى ، أو ينحل الحزب الشيــوعى بدوره ، وتحكم البلد كجبهة موحــدة ، دون أحزاب .

أجابونى على هذا السؤال ، بأن الحزب الشيوعى نفســـه ، لا يمكن أن يستوعب كل طبقات الأمة وأفرادها ، ومعنى هذا أن عدم وجود الاحزاب ، سيفتح الثغرات أمام غير الماركسيين ، ولن يستطيعوا أن يجدوا طريقا فكريا يسدون به هذه الثغرات ، واذن فمن المصلحة ــ مصلحة الوحدة القومية ــ أن تستمر هذه الاحــزاب قائمة ، بحيث تستوعب أية طبقــة ، لا ترى أن الماركسية واللينينية ، هى الأســـاس الوحيد السليم ، لحل مشــكلات السياسة والاقتصاد ، والثقافة والاجتماع .

وأجابونى على هذا ، بأن التفكير الطبقى قد يتطور ، وقد يختلف ، ولكنه سيستمر قائما ، حتى فى ظل النظام الاشتراكى ، وهذا يحتم التحرز منه ، باستمرار وجود أحزاب أخرى ، يمكن أن تتفرق عليها الطبقــات ، وما دام التفكير الطبقى غير هدام ، وغير رجعى ، فلا ضير من استمراره ، عــلى شرط الالتزام بمبادىء الدستور ، والنظام ، وتنفيذ القوانين .

وأجابونى على هذا بأن هذه الأحزاب ، تمثل حقيقة تاريخية بين أبنــاء الأمة الصينية ، وليس من الانصاف أن نزيل هذا التاريخ من نفوس الناس ، طالما هو تاريخ وطنى ، مضطرد مع مطالب الشعب ، وحاجات الأمة .

وسألت : وهل تقف هذه الأحزاب من الحزب الشيوعى موقف المعارضة ؟

وعدت أندم على هذا السؤال ، فالأحـــزاب شريكة فى الحكم مع الحـزب الشيوعى ، وهى متفقة على قيادته ، وعلى برنامج موحد لبناء المجتمع عـــلى أساس اشتراكى سلمى تدريجى ٠

* * *

على أنى أخذت استعرض فى ذهنى أشكال الحكم ونظمه ٠٠

وأخذت أفكر فى نظام الحكم فى الصين ٠٠٠

هل يمكن أن أتصور مثلا ، أن يفقد الحزب الشيوعى اغلبيتـــه ، ويتولى الحكم حزب آخر ، أو عدد من الأحزاب المؤتلفة ؟

أو هل يمكن أن ينقلب الوضع ، فيظل الحزب الشيوعى مشتركا فى الحكم ، ولكن لا على أنه يقود بقية الأحزاب ، ولا على أنه حزب الأغلبية ، ولا على أنه الحزب الذى منه رئيس الجمهورية ، ورئيس مجلس الدولة ، ورئيس المجلس الوطنى ، ولكن على أنه حزب كبقية الأحزاب ؟

هل هذا ممكن ؟ ٠٠ هل هذا محتمل ؟ ٠٠

من الناحية العقلية ، ممكن ومحتمل ٠٠ ولكن من الناحية العملية ٠٠ هل هو ممكن أو محتمل ؟ !

ثم لو أنه ممكن ٠٠٠ ما مصير النظام ؟

هل يعود أدراجه، فيتراجع فى الخطوات الاشتراكية التى اتخذها فعلا ؟ وبدلا من أن تكون خطة الدولة هى أن تتدرج بالنظام وتطـــوره ، الى نظام اشتراكى ، ملكية كل شىء فيه للشعب ٠٠ مجموع الشـــعب ٠٠ تصبح أن تتدرج الدولة بالنظام ، الى نظام رأسمالى ، يعتمد عـــلى الملكية الخاصة ، والنشاط الخاص ٠٠ والاحتكار ، والاستغلال والاستثمار ؟ !

ولكن كيف والاحزاب جميعها متفقة على الاتجاه نحو الاشتراكية ؟

هل تظهر أحزاب جديدة ، محافظة ورأسمالية ؟

والدستور ٠٠٠ كيف يعدل ؟ ٠٠ هل يعدل بواســـطة المجلس الوطنى للنواب ٠٠ هذا المجلس ، المنتخب فى ظل النظام القائم ؟ أم ماذا !

وقانون الاصلاح الزراعى .. هل يلغى ، وتعــــود الأرض تدار بنظام الاقطاع القديم ؟

* * *

أظن أننى أسرفت فى الأسئلة والاحتمالات والتخريج .. ولكن أظنـــه واضــحا أن هـــذه الاســـئلة والاحتمـــالات ، يمكن أن تكون أى شيء ... أحلاما ، أو أوهاما ، ولكنها لا يمكن بحال ما ، أن تكون حقيقة ، أو ظـــلا لحقيقة ، أو شبهة لحقيقة ...

هذا مستحيل ... بالثلث ...

أين القوة التى تخرج الفلاح من أرضه لتؤول مرة أخـرى لاقطاعى رخو طرى ، لا يجيد الا أن يتحكم ، فى أشراف الناس ، وضمائرهم ؟ ! !

أين القوة التى تخرج العامل من مصنعه ، ليؤول مرة أخرى الى رأسمالى محتكر ، مستغل ، يستبيح كل سلاح فى سبيل تنمية رأسماله ، ولو كان هذا السلاح رشوة ، أو خدعة ، أو تضليلا ؟!

وأين القــوة التى تضـــطر النـــواب فى المجالس النيابيـــة .. الصغرى والوسطى والكبرى ، والمجلس الأعلى لنواب الشــــعب ؟.. أين القوة التى تسلبهم القوة ، فى مراقبة أجهزة الدولة وتسييرها ؟ .. بل ومراقبة أعمال المحاكم الشعبية ، والنيابات العمومية ؟ ..

أين هذه القوة ؟ ..

هل يمكن أن تكون قوة من قوى التطور ؟ ..

هل يمكن أن يتم هذا عن طريق انتخابات مثلا ؟ ..

واية انتخابات ؟

ان قانون الانتخاب الصينى يتدرج بالمجالس من صغرى الى ما هو أعلا ، حتى يصل الى المجلس الأعلى لنواب الشعب .

لا لا لا ... ان النظام الحالى فى الصين ، لا يمكن ان يسقط الا بقوة .. الا بمؤامرة خارجية .. الا بعدوان من الخارج.

لقد كنت على وشك أن أكتب كلمة الثورة .. ولكنى لم أجد لها مدلولا لو أنى كتبتها .. وأى مدلول يمكن أن يكون لكلمة الثورة .. وهى ان قامت،

فلن تعتمد على طبقة الشعب ، ولكن على أقلية من أصحاب المصالح ·· ولم تعرف تاريخ الثورات أبدا ، ثورة تقوم بها أقلية ضئيلة ، وانما شأن هذه الأقليات الصغرى أن تدبر انقلابات ومؤامرات ، وتستعين في كثير من الأحيان بعناصر خارجية ، تعينها على تنفيذ الانقلابات والمؤامرات ·

وهل هذا ممكن ؟·· وفي بلاد كالصين ؟·· وبعد كل ما قاساه شعب الصين ؟ ·· وبعد كل ما أحسه من فرق في ظل هذا النظام ؟ ··

أنا لا أحب أن أجيب ، وانما أترك الناس أنفسهم يجيبون ·· وأنا لا أطلب منهم أن يجيبوا الآن ، وهم يقرأون هذه الفقرة من الكتاب ، ولكن بعد أن يتموا بقية الكتاب ··

* * *

بقي سؤال ···

ما مدى الحرية السياسية في الصين ؟

وقبل أن أجيب على هذا السؤال ، أرجو أولا أن نتفق على المقياس ، الذى نقيس به هذه الحرية ·· ما هو ؟ ·· وأين مثاله في التطبيق ؟ ··

في انجلترا مثلا ، يتناوب الحكم حزبان كبيران ، وبجوارهما عدد كبير من الأحزاب ، كالأحرار ، والاتحاديين ، والشيوعيين ، وحزب الضمان الاجتماعي ، وغيرهما من أحزاب خاصة باسكتلندا وشمال أيرلندا ! ·

على أن وجود هذه الأحزاب ، لا يمنع قصور الصراع بين حزب العمال وحزب المحافظين ·· واذا تولى أحدهما الحكم ، ربض الآخر في المعارضة ، يتربص به الدوائر ليفضح سياسته أمام الناس ، ويستعيد الثقة فيه ، أملا في أن يعود اليه الحكم مرة أخرى ·

ومظاهر الصراع السياسى هناك كثيرة ··

الاستجوابات في البرلمان ، والأسئلة ، ومناقشة مشروع الميزانية ، الى آخر هذا النشاط البرلماني ·· وفى خارج البرلمان ، نوادى الأحزاب ، والاجتماعات الحزبية فى الدوائر الانتخابية ، والمنشورات ، والكتب ·· والخطب ·· الى آخر هذه الالوان ·· والصحف وما تنشره فى مقالات وردود وآراء ومناقشات ، وطريقة عرض الاخبار من زوايا تتفق مع رأى

الجريدة .. بل وطريقة وضعها فى الصفحات .. كل هذا له وزنه واعتباره ودلالته ..

هل هذا هو المقياس الذى نتفق عليه .. مثلا ؟

وهل هذه هى الحرية السياسية كما تطبق ، بناء على هذا المقياس ؟

... ان الناس يكادون يجمعون ، على أن الديموقراطية البريطانية ، هى أعمق ديموقراطية برلمانية وأقواها وأثبتها قدما ، وأنا لا أطعن فى هـــذه الديموقراطية ولا مصلحة لى فى تجريحها ، فأنا أبحث بحثا مـــوضوعيا ، دون أدنى ميل او هوى .

على أنى أريد أن أســأل ســؤالا : هل تبيح الحـــرية السياســـية فى بريطانيا ، أن يطعن نائب فى مجلس العمـــوم ، أو عضو فى مجلس اللوردات ، أو كاتب فى صحيفة ، أو خطيب فى حديقة هايدبارك .. هـــل تبيح الحرية السياسية فى بريطانيا لواحد من هؤلاء أن يطعـــن فى النظام الملكى ، ويطالب بتغييره ؟ .. هل فى انجلترا حزب جمهورى ؟

المعروف طبعــا أن النظام البريطانى يمنع هـــذا ، ويعتبره محاولة لقلب النظام ، يعاقب مرتكبها بعقوبة شديدة .

ولنراجع صحيفة « الديلى ويركز » البريطانيـــة ، وهى صحيفة الحــزب الشيوعى هناك .. هل تتعرض لشىء من هذا ؟ .. انها تكتفى بنقد سياسة الحكومة ، أما أن تطالب بتغيير النظام ، كمـــا تقضى النظرية الشيوعية ، فهذا مستحيل .

طبعا الانجليز جميعا ، مسئولين وغـــير مسئولين ، يعرفون المذهـــب الشيوعى ، وسياسته تجاه نظامهم الأساسى ، ولكنهم يحبون أن يظهـــروا أمام العالم بمظهر ديموقراطى متحـــرر من كل قيد .. وما دام الحـــزب الشيوعى عندهم ضعيفا الى درجة لا يخافون منها ، فلا ضير من بقائه ، دليلا على حريتهم السياسية .

* * *

اما النظام الامريكى ، فهو جمهورى ، ليس فيه ملك ، ولابيت مالك ، ولا أمراء واميرات ...

ومقتضى هذا أنه متحرر من كل قيد ، قد يفرضه النظام الملكى ..

وهو فعلا متحرر من هذه القيود..وامر الحكم فيه ، كالنظام الانجليزى ، محصور بين حزبين كبيرين ، اذا نجح واحد ، تربص له الآخر فى المعارضة منتهزا الفرصة لاسقاطه ، ليحل محله .

والحرية السياسية فى أمريكا مكفولة .. ما عدا ما يتصل بالشيوعية عن قريب أو بعيد ! بالمبادىء الهدامة ، التى يحرمها النظام الامريكى !

ليس مسموحا فى أمريكا بقيام حزب شيوعى ، ولا أحزاب اشتراكية ، والذين يثبت أن لهم ميولا يسارية ، يمنعون من مغادرة أمريكا ، كما أن الأجانب الذين يظن أن لهم ميولا نحو اليسار ، لا يدخلون أمريكا .

وأنا لا أريد أن أضيف التفرقة العنصرية ، وأسأل : أين الحرية السياسية من هذه التفرقة ؟ ..

لا أريد أن أسأل عن هذا ، وانما أكتفى بخطر الشيوعية ، كمبدأ خطير هدام ، من التسلل من الأراضى الامريكية ..

وأنا لم أناقش الحرية السياسية فى أمريكا وبريطانيا ، من ناحية سياستهما الخارجية .. فأمر ذلك يطول ، ولكنى أكتفى بمناقشة سياستهما الداخلية ، فى نطاق المقياس الذى نبحث عنه ، للحرية السياسية .

والذى ينتهى اليه الاستنتاج هو :

اولا ـ لا تبيح بريطانيا الحرية السياسية ، فى المطالبة بتغيير النظام .

ثانيا ـ لا تبيح أمريكا الحرية السياسية ، فيما يتصل بالمبادىء الهدامة .

والنتيجة ـ أن الحرية السياسية فى الدولتين مقيدة .

***

والآن ... ما مدى الحرية السياسية فى الصين ؟

أما فى طريقة الانتخاب للمجالس القروية الصغرى ، فالانتخاب مباشر ، مطلق .. لا رسوم للترشيح ، ولا نفقات يدفعها المرشح فى الدعاية ، ولا اشتراط سن أعلى من سن الناخب ، ولا تقيد بقائمة الأحزاب ، ولا بالمرشحين المستقلين ..

انتخابات مطلقة فعلا .. ولكنها هى الانتخابات الوحيدة المطلقة .

أما مراحل الانتخابات بعد ذلك ، الى المجالس الأعلى درجة ، حتى يصل الأمر الى المجلس الوطنى لنواب الشعب ، فهى تتدرج من درجة من درجات المجالس النيابية ، الى الدرجة التى تفوقها .. وهكذا .

وهنـاك يمكن أن يظهر اعتراض .. ما الضـمان ؟ ألا يحدث تأثـير على المجالس ؟ ان تحديدها ، يثير فى الذهن احتمال التـأثير ، أو يجعل التأثير أسهل ؟

وفقهاء الدستور هناك يجيبون على هذا الاعتراض ، بأن سلطة سحـب النائب ، تقف ضمانا فى يد الشعب ، حتى فى ظل هذا النظام .. ولكنى أعترف أن من المستحيل سحب جميع النــواب ، ولا غالبيتهم .. ثم الامر يصبح أكثر استحالة اذا تصورنا تسلسل السـحب ، من درجات المجالس المختلفة ، حتى يصير الأمر أخيرا فى يد الشعب .. الناخبين المباشرين ..

فالحرية اذن مكفولة فى الانتخابات المباشرة ، وفى انتخابات المجالس من مجلس الى مجلس أعلى ، لولا أنها تتم عن طـريق غير مباشر .. ونائب أول درجة مهما كان ممثلا لارادة الناس ، الا أن تقديره فى الانتخاب الى مجالس أعلى ، لابد أن يختلف .. ثم تتدرج اختلافات التقدير ، حتى يمـكن أن نتصور المجلس الوطنى نفسه ، انتخب بتقدير ، قد لا يتعارض مع التقدير القومى العام ، ولكنه يختلف عنه .

وأيا كان الأمر فطبيعة الصين قطعا ، تحتم نظاما خاصا فى الانتخاب ، ولذا يصبح من التعسف ان تطلب منها أن تنقل نظما ، وضعت لطبيعة غير طبيعتها ، وظروف غير ظروفها ، وشعب غير شعبها .

على أى حال هذه ناحية ، وليست كل النواحى ..

أما داخل المجالس النيابية ، خاصة فى المجلس الوطنى الاعلى ، فالحـرية السياسية مكفولة للأعضـــاء تماما .. لهم أن يســألوا ، ولهــم ان يستجوبوا .. وهم الذين يمنحون الثقة ، وهم الذين يسحبونها .. يعينون ويعزلون ... ويقررون لأنفسهم مايرونه من حقوق أخرى ، وأعمال أخرى .

وفى وحدات الحكم ، نص الدستور ، على أن تستمع لشكايات الشعب ، ومنظماته ، وأن تلبى رغباته ، وأن تخضع لمشيئته .

وفى دوائر الأحزاب ، واللجان الحزبية ، نشاط حزبى ، متوقف على حيوية الحزب ، وقوته ، وعدد أنصاره .

وعلى صفحات الصحف ، مسموح بالنقد .. تستطيع أن تبدى رأيك فى مشروع ما .. فى قانون ما .. فى عمل ما .. وتستطيع أن تناقش ، وأن تشرح ، وأن تفصل..ولكن فى حدود النظام العام .

ومما لا يبيحه النظام أن تطالب بعدم تطبيق المذهب الاشتراكى ..أو أن تطالب بزيادة النفوذ الرأسمالى .. أو أن تدعو لقيام احزاب رأسمالية .. أو أن تسب طبقة من الطبقات العاملة .. أو أن تطالب بسياسة زراعية تقوم على الملكيات الكبيرة .

هنا يصبح الأمر خيانة للثورة ، وللشعب .. يحتم على الدولة أن تنزل العقاب بأصحاب هذه الآراء ، تطبيقا للمادة ١٩ من الدستور ، وهى تنص على ما يأتى بالحرف الواحد :

« تدافع الجمهورية الشعبية الصينية عن نظام الديموقراطية الشعبية ، وتقمع كل نشاط خائن للوطن ومناهض للثورة ، وتعاقب جميع الخونة والعناصر المعادية للثورة .

« وتحرم الدولة ، وفقا للقانون ، المالكين العقاريين الاقطاعيين والرأسماليين البيروقراطيين حقوقهم السياسية لفترة معينة ، وتهيىء لهم فى الوقت نفسه سبيلا للحياة ، لكى يصلحوا أنفسهم بالعمل ، ويصبحوا مواطنين يعيشون على عملهم الخاص » .

* * *

ما النتيجة بعد كل هذا ؟ .

ما الحكم الذى نخرج به عن الحرية السياسية ؟

من غير شك ، سيقول الانجليز أن الحرية السياسية الانجليزية هى سيدة الحريات السياسية فى العالم .

وسيقول الأمريكان ، أن الحرية السياسية الأمريكية ، هى منبع الحريات السياسية فى العالم .

وسيقول الصينيون ، أن الحرية السياسية الصينية ، هى أعمق أنواع الحريات السياسية فى العالم .

أما نحن ، ولسنا انجليزا ولا أمريكيين ، ولا صينيين .. نحن المراقبين المحايدين ، نرى بالدليل القاطع أنه لا توجد فى الدنيا حرية سياسية كاملة ، مطلقة من كل قيد .

كما نرى إنه ليس هناك احتمال أن توجد مثل هذه الحرية .

وكما أننا فى مصر لانسمح لخائن ، بأن ينشىء حزبا ملكيا ، أو حزبا يتعاون مع الاستعمار ، فكذلك لا ينبغى أن نتوقع أن تسمح أية دولة مستقلة حرة ، بأن تنشأ فيها أحزاب تعمل على قلب نظام الحكم فيها ، وهو النظام الذى ارتضاه شعبها لنفسه .

وكما أننا فى مصر ، لا نعتبر عدم سماحنا بقيام أحزاب ملكية استعمارية ، تحديدا للحرية السياسية فى بلادنا ، فكذلك لاينبغى أن نتوقع أن تعتبر الدول الأخرى موقفها من خونة نظمها ، تحديدا للحرية السياسية فى هذه الدول .

والذى نخرج به أخيرا هو أن كل نظام موضوع لبيئة بعينها ، ومن الخطأ ، والخطل ، أن نضع للعالم مقياسا واحدا نقيس عليه الحرية السياسية ، أو نظام الحكم .

فالنظام الانجليزى ، صالح لانجلترا ، طالما هو موضع رضاء الانجليز .
والنظام الأمريكى ، صالح لأمريكا ، طالما هو موضع رضاء الأمريكيين .
والنظام الصينى ، صالح للصين ، طالما هو موضع رضاء الصينيين .

* * *

هل تكتمل صورة الحكم فى الصين ، بعد عرض هذه الصور ، لنظام الحكم ، وتطبيقه ، ومناقشة مدى الحرية السياسية ، التى يكفلها هذا النظام ، لستمائة مليون صينى ؟

أنى أوثر أن أكمل هذه الصورة بالمقابلة التى تمت فى بكين ، وفى قاعة الاستقبال الرسمية بالتحديد ، مساء يوم ٢٧ ديسمبر ١٩٥٥ ، بين الوزير الصينى الأول كما يسميه الدستور الصينى ، شو ـ اين ـ لاى ، وبيننا نحن أعضاء أول وفد صحفى مصرى الى الصين الشعبية .

وكنت أعرف عن الرجل أنه يشع ذكاء ، وانه أقوى من رأس حكومته في الصين ، تحت أي نظام ، وفي ظل أي مذهب .

وكنت أعرف عنه ، أنه يمثل عناصر الشعب الصيني تماما ، فلا تختلف تقديراتك عنه .. تعرف من أول وهلة أن هذا الرجل صيني ..

وقالوا لي عنه ، قبل أن نقابله ، أن الرجل كريم ، مضيـاف ، شأن كل الصينيين ، ولذا فهو يحدد موعد المقابلة ، ولكنه لا يحدد مداها .. وهو يؤثر دائما أن يعطي لضيوفه كل الفرص ، ليخـرجوا من عنده راضين قانعين .

وقالوا لي عنه ، أنه يحب الناس ، ويعيش للناس .

وتأهبنا لنذهب اليه ، وبينما نحن في صـالون الفندق ، دق جرس التليفون ، وكان المتحدث مكتب شو ـ اين ـ لاي..

كان يطلب تأخير موعدنا بعض الوقـت ، لأن الوزير الأول ، ووزير الخارجية ، شغل بعمل سريع ، وانه لهذا يعتذر ، ويرجو منا أن نقبـل الاعتذار .

وعقب ناقل الرسالة الينا ، بأن شو ـ اين ـ لاي ، معروف بأن مواعيده كعقارب الساعة لاتخطيء ، ولذا فلا بد أن يكون هناك فعلا أمر هام ، أخر هذه المقابلة بعض الوقت .

ولم تمض الا نصف ساعة ، واذا التليفون يدق مرة أخرى ، واذا المتحدث هو مكتب شو ـ اين ـ لاي ، يقول : الآن الوزير الأول مستعد لمقـابلة أصدقائنا المصريين .. الذين تكبدوا مشاق الرحلة ، وسافروا آلاف الأميال ليحضروا الى الصين .

وذهبنا ... لنلقاه في قاعة الاستقبال الرسمية للحكومة .

وهي نفسها القاعة ، التي اجتمعنا فيها من قبل ، بعدد من المسئولين في حكومة الصين ...

وكنت أتصور كل شيء ، وأنا في الطريق ، لأقابل الرجل ، الذي يرأس حكومة ، تحكم ستمائة من الملايين .

وذكرت ما قاله نهرو زعيم الهند مرة ، عن المشكلات التي يواجهها ..

قال ان تعداد الهند ٣٣٦ مليونا ، ولهذا فأمامى ٣٣٦ مليون مشكلة ، على أن أحلهم لهم ، الحل الذى يرضيهم جميعا .

ومعنى هذا أن أمام شو ـ اين ـ لاى ، ستمائة مليون واربعة ملايين مشكلة ، عليه أن يحلها لهم ، الحل الذى يرضيهم ! ..

كيف يكون هذا الرجل ، الذى يتحمل مسئولية هذه الملايين الضخمة ؟

ووقفت بنا السيارات أمام قاعة الاستقبال .. وكنت انتظر ان يستقبلنا سكرتيره الخاص ، أو اذا أرادوا تكريمنا فمدير مكتبه .. ثم يقوم بتقديمنا الى رئيس الوزراء .

وتفتح البوابة الضخمة .. واذا أنا وجها لوجه ، أمام شو ـ اين لاى نفسه وقد مد الى كلتا يديه مرحبا ، فى ود ، وكرم وبساطة .

ووقفت أقدم اليه الزملاء ، واحدا بعد آخر .. فما أن فرغت ، حتى تقدم رئيس وزراء الصين ، محاولا أن يعاوننى على خلع معطفى !

... ثم أشار الى أن أتقدم ، لأجلس بجواره .

مرت هذه الفترة سريعة .. بحيث لم أنتبه لمن كان فى القاعة ، فما أن جلست بجواره ، لا فى وسط القاعة ، ولكن فى زاوية منها ، حتى بدأت أتكشف الجالسين حولنا ..

وجدت عن يمينى أعضاء الوفد المصرى ، لشباب العالم المسلم ، يرأسهم الاستاذ كمال يعقوب ..

ثم وجدت رئيس اتحاد الصحافة ، ومدير وكالة الصين الجديدة ، ورؤساء تحرير الصحف ، واخواننا من الزملاء الصحفيين ، الذين يرافقوننا فى الرحلة .. ثم وجدت مديرة الاستعلامات بوزارة الخارجية الصينية .. وزوجها .. رئيس قسم العلاقات الخارجية ، بوزارة الخارجية أيضا .

ووجدت أيضا ، السيد نور محمد ، وكيل الجمعية الاسلامية ، والسيد محمد على سكرتيرها العام ، فضلا عن ممثلين لاذاعة بكين ، ومصورى الصحف ، والسينما .

وأمامنا على مائدة صغيرة وضعت أجهزة الاستقبال ، لتسجيل هذه المقابلة ، واذاعة تفصيلاتها على الرأى العام الصينى .

وتناثرت الموائد بين الحاضرين ، على الطريقة الصينية ، تحمـــل أوانى الشاى ، وعلب السجائر والكبريت ٠

وبدأت أنظر الى الرجل الذى عن يسارى ٠٠ الجالس فى ركـن القاعة ، وخلفه شجرة متوسطة ، فى أناء صينى فاخـــــر ٠٠ ذات اوراق خضراء ، تتناسق تماما مع لون القطيفة الداكن ، الذى كسيت به الكراسى ٠٠ كمــا تتناسب مع الزخرفة الصينية ، والألوان الصينية التى تكسو سقف المكان وجدرانه ٠

بدأت أنظر الى الرجل ٠٠ الى شو ـ اين ـ لاى ٠٠ فى « بدلته » الزرقاء، المغلقة ٠٠ شأنه فى ذلك ، شأن بقية أبناء الصين ، الستمائة مليون ٠

واذا عيناه ٠٠ عيناه ٠٠ ! !

ماذا عسانى أقول عن عينيه ٠٠ هما شخصيته ٠٠ هما شو ـ اين ـ لاى !

الحدة ٠٠ الذكاء ٠٠ العمق ٠٠ المرح ٠٠ السذاجة ٠٠ الحيــــوية ٠٠ الجاذبية ٠٠ الاخلاص ٠٠ الدهاء ٠٠

بأية صفة يمكن أن أصف هاتين العينين ؟

لقد جلست بجواره قرابة ساعتين ، وانا اراقب هاتين العينين ٠٠ محاولا أن أقرأ ما فيهما ٠٠ وخرجت بعد الساعتين ، وأنا لا أستطيع أن أضع وصفا بعينه ، يمكن أن يحدد نظراته ، وكل ما خرجت به ، أن قوة هذا الرجــــل المادية ٠٠ مركزة فى عينيه ٠٠

قال زميل ، ونحن خارجون : ان فى عينيه ذكاء ٠٠ معديا !

وقال زميل آخر : أحيانا ترى عينيه متوهجتين كالشرر ! ٠٠ ثم تراهما فجأة طيبتين ، كالبلسم ! ٠٠

أنى لا أريد هنا أن أثبت نصوص الحديث ، فقد تعرضت لذلك الصحف فى حينه ٠٠ ولكنى اكتفى هنا ، بأن أثبت النظريات التى قالها شو ـ اين ـ لاى عن السياسة الخارجية ، فمنها يمكن أن نتبين موقف الصين ، من مشكلات العالم ٠

على أنى أحب أن أسجل لشو ـ اين ـ لاى ثلاث مسائل ٠٠

الاولى : رسالة طلب منى أن أبلغها رسميا لحكومتى فى مصر ، فقد سأل عما تم بشأن تبادل الأنباء مباشرة بين مصر والصين ، فأكدت له ، أن سياسة مصر الحالية ، لا تتقيد بالقيود القديمة ، التى طالما أثقلت خطواتها ، فلم تستطع أن تتقدم الى الامام ، وهى لهذا تريد أن تعرف كل شىء ، من مصادره مباشرة ، ونحن حتى الآن لا نعرف أخبار الصين ، من الصين ، ولكن عن طريق وكالات أنباء غير صينية .. وكثيرا ماتكون مصادر اخبار الصين التى تصلنا ، عن طوكيو أو هونج كونج !

وضحك شو ـ اين ـ لاى ، وهو يشير بيديه ، قائلا : هذه الولاكات أغلبها استعمارية ، ومصلحتها تقتضيها ألا يقوم بيننا فهم متبادل ، وتعاون متبادل ، ولعلنا نستطيع ان نتبادل الأنباء مباشرة ، لا عن طريق ملتو .. اننا فى الصين ، نحب أن نقف على أخبار مصر ، من مصادر مصرية .. نريد أن نكون على صلة بمصر ، عن طريق متابعة أنبائها ، وأنباء نهضتها ، وأنباء كفاح أبنائها البواسل .

قلت أننا على اى حال فى سبيل تفاهم على هذا ، مع وكالة الصين الجديدة .

قال : لقد طلبت من مدير وكالة الصين الجديدة ان تسعى وكالته جادة لتحقيق هذه الغاية ، بل وأن نتبادل مع مصر ، المراسلين أيضا ، وأرجو أن تبلغ حكومتك اهتمامى بهذا الموضوع ، اهتماما كبيرا ، وأنى احب أن أعلم متى يصل الراسلون المصريون الى بكين ، فانى أحب أن أقدم لهم جميع المساعدات ، لتسهيل مهمة اقامتهم فى الصين ، وتسهيل مهمة قيامهم بواجبهم من أجل المصلحة المشتركة ، ودعم التفاهم الودى بين الشعبين القديمين ، فى مصر والصين .

الثانى : ايمان شو ـ اين ـ لاى ، بالمبادىء العشرة ، التى اصدرها مؤتمر باندونج ، وايمانه بالدور الهام الذى لعبه الرئيس جمال عبدالناصر ، لانقاذ المؤتمر ، فى آخر أيامه ، بعد ان فقد الجميع الأمل من نجاحه ، بعدمعارضة تركيا واليابان .

وأضاف شو ـ اين ـ لاى فخره ، بعضويته فى اللجنة السياسية ، التى كان يرأسها جمال عبد الناصر ، وفخره بتعاونه معه فى هذه اللجنة .

وعبر رئيس وزراء الصين عن اعجابه بشخصية الرئيس المصرى ،

وسياسته الحكيمة ، القائمة على روح مؤتمر باندونج ، ومبادئه العشرة .. وأيد معارضة جمال عبد الناصر للكتل العسكرية ..

و مرة أخرى طلب منى ، أن أبلغ هذا رسميا .. لحكومتى .

الثالث : رســالة الى الشــعب المصرى ، قال فيها رئيس وزراء الصــين أن الشعب الصينى يؤيد الشعب المصرى فى سبيل تحقيق استقــلاله . والمساهمة فى دعم سلام العالم ، وأحب أن تبلغوا تحياتى واحترامى للشعب المصرى العظيم ، واننا يجب أن نبذل جهودنا ، لتنمية علاقات الصـــداقة والاخاء بين الشعبين ، على أساس التعاون بيننا ، وتأمين السلام ، ومحاربه الاعتداء ، والمحافظة على روح مؤتمر باندونج .

* * *

أما المبادىء التى وردت فى حديثنا مع رئيس الوزراء ، فانى هنا أكتفى بعرض ما يلى منها :

ان رئيس وزراء الصين يعتبر مصر ذات موقع خاص ، ولها تأثير خاص . على الدول الافريقية والعربية ، ولهذا يعتبر التزامها بمبــادىء باندونج ، انتصارا كبيرا لقضية السلام العالمى فى هذه المنطقة الهامة من مناطق العالم .

وهو يرى ، أن مصر أثرت فعلا على اتجاهات المنطقة العربية والافريقية ، حتى لقد أصبحت المحاولة الاستعمارية ، لجر دول هــذه المنطقة الى حلف بغداد ، محاولة يائسة ، بغيضة الى شعوب هذه المنطقة .

وقرر ان نهضــة مصر ، المستمدة من آمالها ، والمحن التى مرت بهــا ، والتجارب التى تعرضت لها ، نهضة لا يمكن أن تحول بينها وبين الاستمرار ، قوة فى الارض ، مهما بلغت هذه القوة .

وقارن رئيس الوزراء ، بين موقف كل من مصر والصين ، فقــال ان كلا منهما تعرض للاستعمار ، وكلا منهما قاسى من الاستعمار ، وكلا منهما تخلص من الاستعمار ، وبدأ كل منهما يقفز قفزات سريعة الى الامام .

على أنه اعترف بأن الاســتعمار ، أثر على كل من البلدين القــديمين ، اللذين ورثا حضارة عريقة ، وثقافة عالية ، فاذا كل منهما الآن فى مستوى مادى متأخر بالنسبة للتقدم العالمى ، مما يضيف الى أعباء كل منهما إعبــاء

جديدة ،هى أن يبذلا جهدا أكبر في سبيل التغلب على هذا التأخـــر الذى سببه الاستعمار •

وأكد رئيس وزراء الصين ، أن المساعدات المتبادلة بين كل من مصر والصين لا تعنى شيئا ، الا الرغبة فى النهوض ، والرغبة في تعويض ما فاتهما على مر السنين ، والرغبة في تحقيق الرخـــاء للشعبين المصرى والصينى •• وان اختلفت المذاهب ، وان اختلفت الآراء •

ونفى رئيس الوزراء ، أن يكون لهذه المساعدات أى معنى آخر ، غير هذه المعانى التى أكدها في عرضه للمساعدات بين البلدين •

* * *

وعرض رئيس الوزرراء الصينىللاحلاف العسكرية ، والكتلالعسكرية• فعارضها فى قوة ، وفى تهكم •• وكان كلما عرض لكلمة بغداد بمناسبـــة حلفها ، ضغط على الكلمة وهو يضحك ساخرا ، مشيرا بيديه !

وهو يرى أن على الدول المحبة للسلام ، التى تعمل بروح مؤتمر باندونج، أن تؤمن بهذه المبادىء ، وأن تطورها ، بحيث تستمر مسايرة لمصالح هذه الدول •

وأنكر أن يكون تعاون هذه الدول ، فى شكل كتلة عســكرية ، أو حلف عسكرى ••• فان طبيعة هذه الكتل والاحلاف ، أن تجر الى الاعتداء وموقفنا هو معارضة الاعتداء ••• على دولنا منفردة ، ومتجمعة •

ورحب أن تنضم الى هذه المبادىء أية دولة من أى مكان ، طالما اتخذت عدم الاعتداء أساسا لسياستها ، وطالما كانت مستعدة أن تقف ضد أى إعتداء من أى لون •

ولكى يثبت النيات العدوانية للدول الغربية ، من وراء أقامة احلاف وكتل عسكرية ، ضرب مثلا بطلب روسيا أن تنضم الى حلف الاطلنطى ، لتشارك فى الدفاع عن السلام العالمى ••• وكيف رفض هـــذا الطلب ••• وطلب الصين أن تنضم الى حلف مانيلا ، لدول جنوب شرق آسيا ،لتساهم بدورها فى الدفاع عن السلام العالمى ••• وكيف رفض هذا الطلب •

وقال : وهنا يظهر الفرق بين كتلهم واحلافهم العسكرية ، ووحدة دولنا المحبة للسلام ، الراغبة حقيقة فى المعايشة السلمية ٠

وبين رئيس وزراء الصين واجب الدول المحبة للسلام ٠٠ قال : أننـــا لانعتدى على أحد ، ولا نسمح أيضا بأن تعتدى دولة على دولة أخرى ، ولــكن ليس معنى هذا أن نترك العدوان ، ولا نستعد له ، وندفعه بالقوة ٠٠ فاذا اعتدت اليابان علينا ، أو ساعدتها أمريكا للاعتداء علينا ، أصبح علينـــا أن ندفع هذا الاعتداء بالقوة ٠

وأخذ رئيس الوزراء يعدد الاحلاف العســـكرية فى العالم ، فذكر حلف الاطلنطى ، كما ذكر حلف مانيلا ، وعندما وصل الى حلف بغداد ، ضـــحك فى سرية وهزء عميقين !

وأكد أن الصين لاتخاف أحدا ، وان كانت مستعدة لأية محاولة عدوانية ، قد تشن عليها ٠

ثم بدأ يحلل موقف الدول الاستعمارية من الاشـــكالات التى قامت فى العـــالم ٠

سأل : تظن أن أمريكا قبلت الهدنة فى كوريا ، لأنها منتصرة ؟! الطبيعى ، وهو المؤكد ، أنها قبلت الهدنة فى كوريا ، لأنها كانت مهزومة ، مغلوبة ٠٠ فأرادت أن تنقذ سمعتها ، باتفاق الهدنة ٠

وسأل : تظن أن فرنسا قبلت الهدنة فى الهند الصينية ، لأنها منتصرة؟ طبعا لا ٠٠ فلولا أنها كانت مغلوبة منهزمة ، لما قبلت الهدنة !

وكذلك الحال بالنسبة لأى مكان نشأ فيه الصراع بين الشعب الراغب فى الحرية ، وقوى الاستعمار ، التى تريد أرغام هذه الشـــعوب ، على قبـــول الاستعمار ٠٠٠

* * *

وحلل رئيس وزراء الصين الموقف الدولى فى العشر ســـنوات المقبـــلة ، وتوقع أن يستمر عدد أنصار السلام فى تزايد ، مما سيحمى سلام العالم ، من شرور الحرب ٠

وأخذ يشرح فقال أن الذين يعلنون الحرب ، يخسرون الحرب ... فألمانيا أعلنت الحرب العالمية الاولى، فهزمت... ودفعت ثمن عدوانها هزيمةودمارا.

وألمانيا أعلنت الحرب العالمية الثانية ، فخسرت الحرب ، وخسرها معهـــا حلفاؤها ... أيطاليا واليابان ، ودفعت هذه الدول المعتدية ثمن أعتـــدائها هزيمة وخرابا .

ثم ماذا حدث ؟ .. لقد ظهر الاتحاد السوفيتى عقب الحرب العالميـة الاولى ... وظهرت الصين الشعبية ، عقب الحرب العالمية الثانية ... واستقلت الهند ، واستقلت مصر ، واستقلت سوريا ، واستقل لبنان .

بهـــذا نرى أن الدول التى تعلن الحرب تخسر الحـــرب .. ويخسر معها الاستعمار .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، ماذا بقى من الدول الغربية الكبرى ؟

انجلترا فقدت قوتها ، ولم تعد فى موقف يسمح لها بأن تحارب ، وليست لها قوة تعتمد عليها ، بعد أن استقلت الهند ، وهى أكبر مستعمراتها السابقة

وكذلك فرنسا ... وألمانيا ليست فى موقف مستقر ...

اذن لم تبق الا أمريكا ، وهى لاتستطيع وحدها أن تتحمل مسئوليـــــة اشعال حرب عالمية ثالثة .

ومعنى هذا كمـــا استنتج رئيس وزراء الصـــين ــ أن الغلبة ســـتكون لانصار السلام ، ولهذا فهو لايتوقع أعلان حرب عالمية ثالثة فى الســـنوات العشر القادمة .

أما امكان تعاون الاشتراكية والرأسمالية فى العالم ، فقال رئيس وزراء الصين ، أن هذا ممكن ... ممكن جدا ... بشرط واحد ، أن تتجنب الدول الرأسمالية سياسة العدوان ، وألا تتدخل فى أمور الدول الصـــغيرة ... لاتستغلها ، ولا تستبد بهـــا ، ولا توجـــه ســـياستها بالقـــوة ، والفرض ، والعدوان ... تترك الشعوب لنفسها ، تقرر هى حسب مشيئتها ، وتبنى لنفسها الحياة التى تطمع فيها .

ومضى رئيس الوزراء يقول : على أن الاستعمار لايمكنه أن يستمع لهذا.. فهو لايعيش الا فى ظل الاضطراب والفوضى .. لابد له من خلق المشكلات

لأنه بدونها لايستطيع أن يعيش ··· فهو يحمي وجوده في مكان ما ، باثارة الخلاف والفتن في هذا المكان ··· وليس صحيحا أن الاستعمار يتطور ··· وليس صحيحا أنه يتغير ··· فالاستعمار هو الاستعمار ، لايتغير ولايتطور ··· حقيقته واحدة ، وأهدافه واحدة ·

* * *

بقيت مسألتان عرض لهما رئيس وزراء الصـــين ··· وكان صريحا في المسألة الأولى ··· أما في المسألة الثانية ، فكان يلجأ الى بعض التحفظ ·

والمسألتان تتصلان بالسياسة المصرية عن قريب جدا ·

أما الأولى ، فهي مسألة السودان ، وقد قرر رئيس وزراء الصين ، حكمة السياسية المصرية ازاءها ، ووضوحها ، وعدالتها ، بحيث أعطت الشـــعب السوداني حقه في الحياة الحرة ، والاستقلال ·

وأما الثانية ، فهي مسألة اسرائيل ···

قال رئيس وزراء الصين أنها كلها مشكلة خلقها الاســـتعمار ، وأراد بها أن يثير القلاقل في منطقة الشرق الاوسط ، بين العرب واليهود ·

ثم قال : أن الصهيونية هي الآلة التي يتخذها الاستعمار ، لخلق كل هـــذه المشكلات ·

وأستأنف حديثه متسائلا : على أني أعجب ·· الا توجد وسيلة يمكننا بها أن نقنع شعب اسرائيل ، بخطأ سياسة الاستعمار ، ونقنعه بتعديل هـــذه السياسة ؟

* * *

وهنا لم حس أنني أتحدث الى رئيس وزراء ستمائة مليون صـــيني ··· لقد غلا الدم في رأسي بمجرد ذكر اسرائيل ، فقلت لرئيس الوزراء : شعب اسرائيل ؟ ماهو شعب اسرائيل ، وكيف تجمع ؟ ألم يطرد العرب ، الاغلبية الفلسطينية ، من بلادهم ، ليتكون شعب اسرائيل ، ودولة اسرائيـــل ؟ ·· واذن فالمسألة ليست مسألة دين ففي كل بلد عربي يهود ، متساوون مع العرب في جميع الحقوق والواجبات ··· ولكنها مسألة استعمار ، يتخذ شــــكل الصهيونية العالمية ، لخلق المشكلات في الشرق الأوسط ··· ونحن لانقر

وجود اسرائيل ، والتصحيح الوحيد الذى نرتضيه ، هو أن يعود العرب الى بلادهم ، ويستعملوا حقهم ، كأغلبية فى حكم بلادهم ، بالطريقة التى يختارونها .

وهز رئيس الوزراء رأسه ، وهو يقول : أعلم تماما أن الخلاف بين العرب واسرائيل حاد ، وأنا واثق أن حله ممكن ، لوتنحى الاستعمار عن التدخل فى السياسة المحلية ، لدول هذه المنطقة من العالم .

على أنى لم أنس كلام رئيس الوزراء ، فأخذت بعد ذلك أتحدث عن مشكلة اسرائيل ، كلما وجدت الفرصة ، لأوضح للرأى العام الصينى وجهة النظر العربية فى هذه المشكلة الدقيقة .

وكنت حريصا على ان أعقد المقارنات بين اسرائيل وفرموزا .. لأبين أن اسرائيل بالنسبة لنا ، هى فرموزا بالنسبة لهم .. فاذا جاز للصين أن تتجاوز عن نظريتها السياسية ، فيما يتصل بفرموزا ، فأنه يمكن أن نتجاوز عن نظرتنا الى اسرائيل .

وفى المحاضرة التى دعيت لألقائها فى جمعية الدراسات الدولية فى بكين وهى الجمعية التى يتولى شو - اين - لاى رئاستها الفخرية ، ويتولى وزير المعارف الصينية رئاستها الفعلية ، قلت عن اسرائيل بالحرف الواحد :

« ان الصهيونية العالمية ، التى تتعاون مع بقايا الاستعمار الطريد ، والرجعية المسلوبة الارادة ، تتآمر فى فلسطين ... تآمرت فى سنة ١٩٤٨ على الاستعمار ، فأعلنت قيام دولة اسرائيل ، على اشلاء الضحايا من العرب وملايين اللاجئين المشردين ، فى الصحارى ، وبين ثلوج الجبال .

« كانت فلسطين تتكون من قرابة اربعة ملايين ، بينهم نصف مليون يهودى ، يعيشون معهم فى سلام ، وكان بقية يهود الشرق العرب ، مفرقين على الدول العربية ، فى مصر ، والعراق ، وسوريا ، ولبنان ، والأردن ... يعيشون كما يعيش الآخرون ، دون تفرقة ، فى شىء ما .

ولكن النصف مليون يهودى ، الذين ضللتهم الدعاية الصهيونية ، انقلبوا بين عشية وضحاها ، جيشا مسلحا ، بأسلحة الاستعمار ، يحاولون طرد العرب من بلادهم ، وتشريدهم ، ليقيموا دولة اسرائيل .

ولجأ أغلبية العرب المسالمين العزل الى أخوانهم فى الدول العربية ، فهبوا يحمونهم من الاضطهاد ، وهب الاستعمار يحمى العدوان الصهيوني ، فقامت إسرائيل •

ومن يوم قامت ، وهى ترتكب كل يوم عدوانا ، وتهزأ كل يوم بقـانون وتستبيح كل يوم حرمة ، ولايهمها الا أن تحقق للاســتعمار مايســمونه التوازن فى منطقة الشرق الاوسط •

هذه هى اسرائيل ، أو هذه هى فرموزا فى الشرق الاوسط •

هذه هى عين الاستعمار ، تضلل شعب اسرائيل ، وتدفعه الى العـدوان ، بحجة التوسع ، وتحقيق الحلم الصهيونى ، وهو أن يقوم حكم اسرائيل ، من شاطئ الفرات فى العراق ، الى شاطئ النيل فى مصر ••• لايهم أن يتشتت العرب ، ولايهم أن يجوعوا ، ولايهم أن يقاسوا ، مادام الاستعمار وراءهم ، يحمى ظهورهم ، ويدفعهم الى العدوان •

أن اسرائيل أيها الاصدقاء تريد أن تبتلع سوريا ، ولبنان ، وجـزءا من الاردن ، وجزءا من مصر ، وجزءا من العراق

ان اسرائيل أيها الاصدقاء ، هى بالنسبة لنا ، فرموزا بالنسبة لكم •

صنيعة من صنائع الاستعمار ، ودعامة من دعاماته ، ووسيلة جـــديدة يهددوننا بها ، تعويضا له عن الخسائر التى الحقتها به الشعوب •

اننا نريد السلام ••• نريد أن نصنع السلام لأنفسنا ، ولسوانا ، فاننا لانستطيع أن نبنى بلادنا ، الا فى ظل السلام •

ولكن الاستعمار ، يأبى الا أن يدفعنا الى الحرب ، وهما منه أنه سيتغلب على روح المقاومة فينا ، ويعود بنا الى حالة من الضعف ، تمكنه من أن يعود الينا ، سيدا مطاعا •

ولكن هيهات •• ان الغلبة اليوم لن تكون لتجار الموت ، ولكنها ستستقر لبناة الحياة •••

هذا ماقلته بالنص ، بعد ظهر يوم ٩ يناير ١٩٥٦ فى بكين ••• ولو كان لى أن أحكم بالتصفيق المدوى ، الذى قوبل به هذا الكلام ، على الاقتناع به لامكن أن أقرر هذا الاقتناع •

على أن الأمر لايزال يحتاج الى جهود لكسب الصين الى جوار النظــرية العرب من بلادهم ، وتشريدهم ، ليقيموا دولة اسرائيل .

* * *

على أى حال أنا لااكتب عن مشكلاتنا فى الشرق الاوسط ... وكل الذى أردته من هذا الكلام ، هو توضيح سياسة الصين الخارجية ، خاصـــة فيما يتصل بنا فى الشرق الاوسط .

ولعل صورة الحكم الداخلى فى الصين ...

وصورة السياسة الخارجية للصين ، كما رواها رئيس وزرائها ...

لعل هذه وتلك ، تلقى ضوءا على سياسة الصين فى زواياها الهامة ، بما يجعلنا أكثر فهما لها ، وبالتالى أنتفاعا بها .

جرّب

سكودا

١٩٥٦

سيارة الغد المفضلة

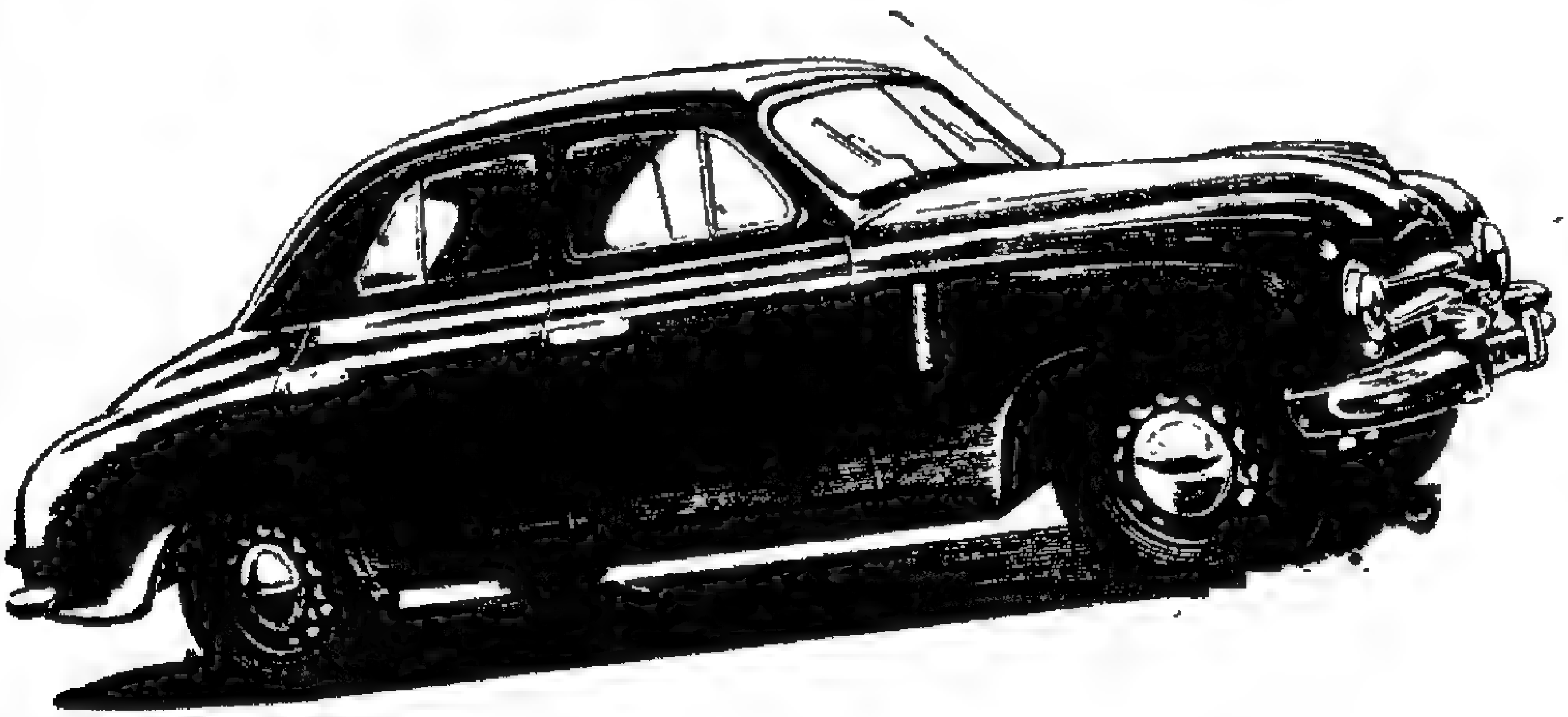

لى عبد النبى وشركاه

اع عدلى بمصر

ت ٤٩٠٧٥ ٥٧٧٠٢

ليست نظم الحكم ، غايات فى ذاتها ، وانما هى وسائل •

والغايات هى تحقيق أصلح مجتمع أنسانى ، للناس جميعا ••• وليست الخلافات ، والمنازعات ، حول نظم الحكم ، الا مظهرا لاختلاف التقدير ، لتحقيق هذه الغاية •

ومنذ عرف الناس نظام المجتمع ، وهذه الخلافات قائمة ، تتخذ اشكالا مختلفة ، لتحقيق هذا الهدف •

وأكبر الظن أن الناس لن يلتقوا عند مذهب من المذاهب ، فى تحديدنظام عام للحكم ، وانما سيستمر الخلاف قائما بينهم ، عن أصلح هذه النظم جميعا •

وسواء اختلف الناس أو لم يختلفوا •• التقوا عند مذهب من المذاهب أو لم يلتقوا ، فان القاعدة فى الحكم على نظام ما ، هى أن نناقش نتائج هذا النظام ، فيما يتصل بتحقيق الغاية من النظام ـ أى نظام ـ وهى تحقيق أصلح مجتمع أنسانى •

على أن الحكم على صلاحية المجتمع الانسانى ، يجب الا ينفصل عن تقدير الظروف المحيطة بالمجتمع •• طبيعية كانت أو زمنية ••• فان من الظلم أن نقيس المجتمع الفرنسى فى القرن السابع عشر مثلا ، على المجتمع الامريكى فى هذا القرن الذى نعيش فيه ••• بل من الظلم كذلك أن نقيس المجتمع الفرنسى فى هذا القرن ، بالمجتمع الامريكى فى القرن نفسه ، على مابينهما من خلافات فى الظروف ، والبيئة ، والامكانيات والعناصر التى تكون أمزجة الناس •

نخرج من هذا الكلام العام ، بأننا ـ لكى نحكم على نظام الحكم فى الصين يجب الا نقارن النتائج التى حققها فى المجتمع الصينى ، بأية نتائج أخرى ، حققها أى نظام آخر فى مجتمع آخر •• مالم تكن الظروف واحدة ، والبيئة

واحدة ، والامكانيات واحدة ، والعناصر التى تـكون أمزجة الناس أيضـــا واحدة ••• وهذا مستحيل! •

واذن فالحكم على صلاحية النظام الصينى ، يجب أن تقاس دائما بالنسبة لظروف الصين •••

صحيح أن من الممكن أن تعقد المقارنات ، فى خطوط عامة عريضة •••

كما أن الاعتراض المطلق على المقارنة ، لايخدم التقدم ، فالتقدم يتحقق عن طريق الاستفادة بتجارب الغير ، وهذا نوع من المقارنة •••

ولكن الذى أعتقده ، وأومن به ، أن المقارنة الكاملة مستحيلة ، وانه لابد أن يدخل فى الاعتبار ، أن هناك فروقا ما ، قد تكون كلية وقد تكون جزئية، يجب أن تحدد مدى هذه المقارنة •

ولهذا ، فأنا لست من أنصار النقل ••• أى نقل !

ولو قيل لى أن المدينة ، الفاضلة قد تحققت فى مكان ما من العالم ، وأنـنـا لهذا يجب أن نحذو حذوها فسأستمر عنــد رأيي ، وهو أنه ليس محتما ، أن يؤدى النظام الذى حقق هذه المدينة الفاضلة فى مكان ، الى أن يحقق المدنية الفاضلة نفسها ، فى مكان آخر •

لابد أن ينبت نظام الحكم فى أى مكان ، من نفس المكان••والذين يقولون بغير هذا ، أما عوام ، أو غير مكتملى الشخصية ، أو سيىء القصد والتقدير !

* * *

فى حدود هذه الدائرة نناقش النظام الصينى ••

ماذا فعله هذا النظام ، لتحقيق الغايات الأساسية من النظام ، أى نظام ؟

ماذا فعله لخلق أصلح مجتمع أنسانى ••• صينى ؟

أن النظام الصينى نفسه يقول لك بصراحة : أننا مازلنا فى أول الطريق ••• اننا محتاجون الى مساعدة أصدقائنا ••• محتاجون الى نقدهم لأعمالنا ••• محتاجون الى كل يد تمتد الينا بالمساعدة والمعاونة •

والنظام الصينى نفسه يقول لك بصراحة : لقد كان اقتصادنا منهارا •• لقد كانت ثرواتنا مبددة ••• لقد كان شعبنا منقسما على نفسه ••• لقــد كانت أمتنا متفرقة •

والنظام الصينى نفسه يقول لك بصراحة : ولاشك أننا وجدنا المعاونة من الاتحاد السوفييتى ، الذى ساعدنا بالآلات ، والمصانع ، والتجارب ، والخبراء ... كما وجدناها من أصدقاء آخرين ، كالالمان الشرقيين ، والتشيكوسلوفاكيين ، والبولنديين ... شكرا للاتحاد السوفيتى ، ولهؤلاء الأصدقاء عموما .

والواقع أن الذى يدرس تاريخ الصين ، خاصة فى السنوات التى سبقت قيام النظام الحالى ، يجد أن هذا النظام ، تسلم الحكم ، ميراثا بددته المحنة ، وحطمته مرارة التجربة !

وكان طبيعيا أن يتجه الحكم اتجاها اشتراكيا .. فالحزب الغالب شيوعى ، والاحزاب الأخرى متعاونة معه ، متفقة على قيادته .

وفى كل قرية وحدة من وحدات الثورة ، أعدها الحزب الشيوعى ، ودربها ، واستعان بها فى إشعال الثورة ، والمضى بها الى النصر .

ونقابات العمال ، ومنظمات الشباب ، ووحدات جيش التحرير ، ووحدات حرب العصابات ... كل ذلك معناه ان الحزب الشيوعى ، عرف كيف يسيطر على القرية ، وعلى المدينة ، فى جميع اجزاء الصين .

فالاتجاه الاشتراكى اذن ، كان ضرورة حتمتها ظروف الثورة الصينية ، وكان انتصار الثورة ، بصورة معجزة لم يكن يتوقعها أحد ، سببا فى عمق هذا الاتجاه فى نفوس الجماهير .

وقد استجاب مجلس الشورى لهذا الاتجاه فوضع من أسس الحكم : اعادة بناء الدولة ، على أساس اشتراكى سليم .

ولما تم وضع الدستور ، تضمن هذا الدستور ، بصورة لاتقبل الشك ، اتجاه الدولة نحو النظام الاشتراكى الواضح .

ففى المواد ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ١٦ نصوص صريحة توضح هذا الاتجاه

ولكى تكمل الصورة للحديث عن النظام ، وما حققه فى الصين ، أجد أن نقل نصوص المواد السالفة الذكر ضروريا ، حتى يسهل الحكم على البرامج التى وضعتها الدولة ، والمشروعات التى قامت فعلا بتنفيذها .

واليك نصوص هذه المواد :

المادة : بالاعتماد على هيئات الدولة والقوى الاجتماعية ، وعن طـــــريق التصنيع الاشتراكى والتحويلات الاشتراكية تضمن الجمهورية الشــعبية الصينية القضاء التدريجى على نظام الاســــتثمار ، وتؤمن بناء المجتمــع الاشتراكى ٠

المادة ٥ : تحتوى ملكية وسائل الانتاج فى الجمهورية الشعبية الصــينية فى الوقت الحاضر ، على الاشكال الاساسية التالية :ملكية الدولة ، أىملكية كل الشعب ــ ملكية التعاونيات ، أى الملكية الجماعية للجماهير العــاملة ـ ملكية العمال الفرديين ــ ملكية الرأسماليين ٠

المادة ٦ : اقتصاد الدولة ، هو اقتصاد اشتراكى قائمعلىملكية كلالشعب وهو القوة القيادية فى الاقتصاد الوطنى ، والاساس المادى لتحقيــق الدولة التحويلات الاشتراكية ٠ والدولة تضمن الاسبقية لتطور اقتصاد الدولة ٠

جميع الموارد المعدنية والمياه تعــود الى الشعب كله ، وكذلك الغـــابات والاراضى البور ، وسائر الموارد التى هى ملك الدولة ، بموجب القانون ٠

المادة ٧ : الاقتصاد التعاونى ، هو اقتصاد اشتراكى قائم على الملـــكية الجماعية للجماهير العاملة ، أو اقتصاد شبه اشتراكى قائم علىالملكية الجماعية الجزئية للجماهير العاملة ، وهى شكل انتقالى لتنظيم الفلاحين الفـــرديين واصحاب الصناعات اليدوية الفرديين ، وسائر العمال الفرديين ، وقيادتهم الى الملكية الجماعية للجماهير العامة ٠

تحمى الدولة أملاك التعاونيات وتشجع وتوجه تطور الاقتصاد التعـاونى وتسدى اليه المساعدة ، وتتخذ تطوير التعاون فى الانتاج طريقا رئيســيا لتحويل الزراعة الفردية ، والصناعة اليدوية الفردية ٠

المادة ٨ : تحمى الدولة وفقا للقانون ، حق الفلاحين فى امتلاك أراضــيهم وغيرها من وسائل الانتاج ٠

ترشد الدولة الفلاحين الفرديين ،وتساعدهم على زيادةالانتاج ، وتشجعهم على تشكيل تعاونيات الانتاج وتعاونيات البيعوالشراء ، وتعاونياتالتسليف على اساس الرضى والاختيار ٠

وتنهج الدولة سياسة حصر وتصفية تدريجية ، ازاء اقتصــاد الفلاحين الاغنياء .

المادة ٩ : تحمى الدولة ، وفقا للقانون ، حق أصحاب الصناعات اليدوية وسائر العمال الفرديين غير الزراعيين فى امتلاك وسائل انتاجهم .

ترشد الدولة اصحاب الصناعات اليدويةالفرديين وسائرالعمال الفرديين غير الزراعيين ، وتساعدهم على تحسين أعمالهم ، وتشجعهم على تشــــكيل تعاونيات الانتاج ، وتعاونيات البيع والشراء ، على أساس الرضىوالاختيار .

المادة ١٠ : تحمى الدولةوفقا للقانون ،حقالرأسماليينفى امتلاكوسائلهم الانتاجية وسائر « الرأسماليين »

تنتهج الدولة سياسة استفادة وحصر وتحويل ازاء الصناعة الرأسمالية، والتجارة الرأسمالية ، فبواسطة أشراف هيئات الدولة الادارية ، وقيــــادة اقتصاد الدولة ، ورقابة الجماهير العمالية ، تستفيد الدولة من دور الصناعة والتجارة الرأسماليتين الايجابى ، المفيد للرخاء الوطنى ولرفاهية الشعب ، وتحصر دورهما السلبى الذىيلحق الضرر بالرخاءالوطنى وبرفاهية الشعب، وتشجعهما وتوجههما لتتحولا الى اقتصاد رأسماليـــــة الدولة الذى يرتدى اشكالا شتى كى تحل ملكية كل الشعب ، محل ملكية الرأسماليين بصــورة تدريجية .

المادة ١١ : تحمى الدولة حق المواطنين ، فى امتــــلاك دخلهم المشروع ، والمدخرات ، والمساكن ، وغيرها من وسائل المعيشة .

المادة ١٢ : تحمى الدولة وفقا للقانون ، حق المواطنين فى أرث الأملاك الخاصة .

المادة ١٥ : بواسطة المشروعات الاقتصادية توجه الدولة تطور الاقتصــاد الوطنى وتحويله لرفعالقوى المنتجة بلا انقطاع منأجل تحسين حياة الشعب المادية والثقافية ومن أجل تعزيز استقلال البلاد وأمنها .

المادة ١٦ : العمل قضية شرف لجميع المواطنين القادرين على العمــــل فى الجمهورية الشعبية الصينية ، وتشجيع الدولة نشاط المواطنين وأبداعهم فى العمــــل .

هذه هي المواد .. هذه هي نصوصها .

والمواد والنصوص ، كنظم الحكم ، ليست هدفا في ذاتها ، والعبرة فيها بالتطبيق ...

فماذا فعل النظام الصيني ، ليحقق هذه المواد ، على الطبيعية بالفعل ؟

لنبدأ بالزراعة لعدة أسباب :

أولها أنها أقدم في المجتمع الانساني كله ، فصلة الانسان بالأرض ، قامت أولا على الزراعة .. على استغلال السطح ، ثم تعمق الى الانسان الى القاع ، بعد أن تقدم تفكيره .

وثانيها أنها تتصل بحياة أغلب سكان الشرق .

وثالثها أن لها تاريخا في تطور الثورة الصينية .. وانهـــا كانت عاملا حاسما ، حدد مصير الثورة .

لقد اتجه ماوتسى تونج ، عندما بدأ يعمل في الاعداد للثورة الى القريـة الصينية .. واعتبرها النواة الأولى التي يجب أن تتبع منها .. ولهـــذا افتتح معهد الفلاحين في كانتون ، ثم افتتح عدة معاهد ريفية في شـــمال الصين ، بذر فيها بذور الثورة ، ودرب فيها الفلاحين على الثورة .. علمهم وثقفهم وكونهم تكوينا ثوريا ، ثم أعادهم الى قراهم ، ليحولوا كل قرية الى وحدة ثورية مكتملة ، تســتطيع أن تتحمل نصـيبها من الـكفاح .

ومن هنا كانت قوة ماوتسى تونج ، ومن هنا عـرف بأنه الثـــائر الذى تطور بالتكتيك الثورى ، وعرف كيف ينسـقه على طبيعة بلاده .

وهو ـ ماوتسى تونج ـ نفسه ، الشخص الذى تبني الاصـلاح الريفى ، وأخذ يقيم التجارب ، والحقول التجريبية ، على الطبيعة ، وعلى النـــاس ، ليصــل الى أكثر الطرق تناسبا على طبيعة الصين .

وهو لهذا معروف ، بأنه أبو حركات التعاون ، وراعيهـــا .

وعندما كنا في الصين .. وأردنا أن نقابل هذا الفيلسوف الاشـــتراكى الذى أوجد هذه الفلسفة الصـينية الاشتراكية ، علمنا أنه ليس في بكين ، ولن يعود اليها قبل شهر .. لأنه يتجول بين المزارع التعاونية ، وحقوله

التجريبية ، ليضع تقريره السنوى عن حركات التعاون فى الريف ، والقرية .

***

لهذه الأسباب .. نبدأ بالزراعة .. ماذا فعلوا فيها ، لتتطور فى الطريق الاشتراكى ، الذى حددته نصوص الدستور ؟

وقبل أن أمضى فى الحديث أرجو أن يعتاد القراء على هذه الوحدات الصينية ..

سيتردد هنا ألفاظ « الماو » و « الهكتار » ، و « الكاتى » ، و « البيكال » ، و « الليان » .

أما « الماو » فهو واحد من خمسة عشر من « الهكتار » ... و « الهكتار » مساحة من الارض قدرها فدانان ونصف تقريبا ... ومعنى هذا أن « الماو » عبارة عن سدس فدان .. يعنى أربع قراريط مصرية .

وأما « الكاتى » فهو وزن صينى قدره رطل وربع انجليزى ، وكل كيلو جرام يساوى اثنين كاتى .

و « البيكال » وزن صينى آخر ، قدره مائة كاتى .. يعنى خمسين كليو جراما .

و « الليان » جزء من أثنى عشر جزءا من الرطل الانجليزى ... ولعله يقابل الجرام ، كأصغر وحدة من وحدات الوزن .

وحتى تستكمل هذه الاستصلاحات أضيف هنا اليونا ، وهى وحدة العملة فى الصين ، وهى تساوى خمسة عشر قرشا بالتقريب ، وكل يوانا مقسمة الى مائة سنت .

ويقول خبراء الزراعة فى الصين ، أن متوسط درجة الحرارة فى بلادهم طول العام هو عشر درجات ، وأن الشمس تشرق فى المتوسط ، بين ألفا وثلاثة آلاف ساعة فى السنة .

أما مساحة أراضى الصين فهى ١١ بليون و٤٠٠ مليون ماو ، المزروع منها مساحة واحد بليون ، و ٦١٨ مليون ماو .

وهناك مساحات أخرى قابلة للزراعة الآن وقدرها ٤٧٠ مليون ماو .

كما أن هناك مساحات أخرى ، قابلة للزراعة ، وقدرها واحد مليون ، و ٥٠٠ مليون ماو .

وقد أصدرت الحكومة المركزية قانونا للاصلاح الزراعى ، قضى بأن توزع الأرض على الفلاحين ، وان تنتهى الملكيات الزراعية الكبيرة نهائيا .

وبهذا لم يصبح فى الصين ، ملاك يمتازون على سواهم ، وأنما أصبح الجميع سواء ، فى المساحة التى يتملكها كل فلاح .

وأصبح نصيب كل فلاح من الأرض ثلاثة « ماو » .

أما ملاك الأرض الأغنياء ، فقد هرب بعض الاقطاعيين من البلاد ، والذين لم يكن لهم نشاط ضد الثورة ، ولم يعرفوا بالتعاون مع أعداء البلاد ، خيروا بين البقاء فى القرية ، فى ظل هذا القانون ، يسرى عليهم ما يسرى على سواهم من الفلاحين ، أو يغادروا القرية الى المدينة ، يباشرون فيها أعمالا أخرى ، بما وفروه من أرباح .

أما أغلبهم ، خاصة كبار الملاك ، فقد غادروا القرية الى المدينة ..

وكانت هذه الطبقة من الملاك تكون حوالى عشرين مليونا من الصينيين

ووزعت الأرض ، فتملك ٣٠٠ مليون فلاح أراضى ، لأول مرة ، فى حدود ثلاثة ماو لكل .

وبدأت نداءات الرئيس ماوتسى تونج تحض الفلاحين على الأنضمام للحركة التعاونية الريفية ، خدمة لأنفسهم ، وللانتاج القومى للبلاد ..

وانضم ٤٠ ٠/٠ من الفلاحين الى هذه الجمعيات حتى سنة ١٩٥٢ ، وبهذا أصبح فى الصين مليون ونصف مليون جمعية تعاونية ريفية ، أو مزرعة تعاونية .

ويقول المسئولون الصينيون أن التقدير قام على توقع انضمام ثلث الفلاحين للنظام التعاونى ، حتى هذا التاريخ ، ولكن الذى حدث أن أنضمام الفلاحين تجاوز النسبة التى كانت متوقعة ، ثم مضوا ينضمون حتى وصلوا الآن الى أكثر من النصف ، وفى الخريف القادم ، تكون نسبة المنضمين الى هذه الجمعيات ٨٥٪

والبرنامج الموضوع ، وهو برنامج السنوات الخمس فى الصـــين ، قد قسم التطور فى الزراعة ، وفى الصناعة ، وفى التجارة ، وفى الثقـــافة ، وفى كل زاوية من زوايا البناء العام للدولة ، الى ثلاث مراحـــل .

الأولى من ١٩٥٣ الى ١٩٥٧ .

والثانية من ١٩٥٧ الى ١٩٦٢ .

والثالثة من ١٩٦٢ الى ١٩٦٧ .

ففيما يتصل بالزراعة تتضمن المرحلة الأولى **تحويل الزراعة فى الصـــين كلها الى مزارع تعاونية** ... أساسها الملكية الفردية ، والتعـــاون الزراعى بين جميع أعضاء الجمعية التعاونية ، أو المزرعة التعاونية .

وفى هذه الأثناء ، تحاول الدولة بمختلف وسائل التعليم والتحـــويل ، أن ترفع مستوى التفكير بين الفلاحين ، فتخف من أذهانهم فـــكرة التملك الفردى ، ويصبحون قابلين للأقتناع بالملكية الجماعية .

وتكون الدولة فى هذه الأثناء ، أو يكون ماوتسى تونج شـــخصيا ، قد أتم التجارب الخاصة بهذا التطور ، فى الحقول التجريبية التى يتولى بنفسه الاشراف عليها .

وحينئذ تبدأ **المرحلـــة الثانية** ، وفى هذه المرحلة **تتـــكون الأتحادات التعاونية العامة ، ليزداد الانتاج ، ويزداد بالتالى دخـــل الفلاح** ، فيتمـــكن تطويره الى المرحلة الثالثة .

وفى المرحلة الثالثة تنفذ المزارع الجماعية ، على خطـــوتين ، الأولى ، أن يستـــمر لـــكل فلاح ملكه الخاص ، على المشـــاع ، داخـــل مزرعة جماعية كبـــيرة ... وهذا الملك الخاص ، هو الذى يحدد ســـهمه فى الملكية العامة للأرض ... ثم ترفع فكرة الملكية الخاصة نهائيا من تفكيره ، فيصبح شريكا فى ملكية المزرعة ، مع جميع الفلاحين الآخرين ...

هذا هو البرنامج الموضوع ، للانتقال بنظام الزراعة الصـــينية الى زراعة اشتراكية ، على خطوات تدريجية ، روعيت فيها طبيعة الشعب الصينى ، وتعلقه بالأراضى التى يزرعها ، وحبه فى أن يحس ملكيته لها .

أما نظام التــوزيع فى ظل هذا النظام ، فقد قال لى أحد المسـئولين فى وزارة الزراعة فى بكين : انه قائم فى أغلبــه على الانتاج ، فالنسبة الكبرى على أساس الانتاج ، والنسبة الصغرى على أســاس الملكية الموحدة بـين الفـلاحين جميعـا •

وسألته : وعندما يتطور النظام الى ملكية جماعية عامة •

قال : فى المرحلة الأولى من هذا التطور تستمر نسب التوزيع قائمة على هـذين الأساســين ، مع نزول بنسبة التوزيع على أساس الملكية ، وزيادة نسبة الانتاج •

قلت : ثم ٠٠٠؟

قال : ثم يصبح التوزيع قائما على أساس الانتاج فقط •

قلت : لا على أساس الحاجة ؟

قال : لا لا ٠٠ نحن اشتراكيون ،واتجاهنا الى الاشتراكية ٠٠ ولسـنا شـيوعيين ، ولا نهدف لتحقيق الشيوعية فى المجتمع الصينى •

* * *

ولقد ظللت مختزنا هذه المعلومات ، وانا انتظر يوم نزور قرية تعاونية ، لنرى كيف تدار •

وجاءت الفرصة ، ونحن فى مدينة « سنيا » فى الشمال الشرقى ، فذهبنا الى قرية على بعد مسافة ساعة ونصف ساعة بالسيارة •••

والقرية تسمى « تاشن تشنج »

وهناك قابلنا مدير الجمعية التعاونية ، فى مقـر الجمعيـة ، واســـمه « ليوتشنج يون » ٠٠

والجمعية عبارة عن مبنى ريفى متواضـع من طـابق واحد ، ينقســـم الى عدة أقسام ، يتوسطها فناء متوسط ٠٠

مكان يستعمل مكتبا للجمعية ، ويستخدم لعقد اجتماعاتها •

ومكان يســتعمل لاجتماع فلاحى القرية ، حيث يتندرون ، ويحتسون الشاى ، ويتسلون بمختلف الألعاب •

سقط الاقطاع فى الصين ... كما سقط فى مصر

ومكتبة ريفية صغيرة ، فيهـا عدد من الـكتب لا بأس به ، وصـحف ومجلات ، ونشرات زراعية وتعاونية ٠

وقاعة للاحتفالات ٠٠ فيها طاولة لتنس الطاولة ، ترفع فى الاحتفالات ٠

وفوق الجدران ، فى جميع هذه الأمكنة ، علقت بعض منتجات القـرية الزراعية ، فى أركان مختلفة منها ٠

وخلف هـذا المبنى ملاعب رياضـية أساسها ملاعب كرة السلة ، وهى اللعبة الشعبية المنتشرة فى جميع انحاء الصـين ٠

وعلى بعد خطوات من مبنى الجمعية ، المدرسة ٠٠٠

ثم على بعد خطوات أخرى ، حظيرة دواجن الجمعية ، وزريبة البهائم ٠

وفي وسط القرية مخزن تجارى ، فيه مختلف البضائع ٠٠

وعن يمينه مبنى القيادة الطبية والصيدلية ، وسكن الطبيب والممرضات٠

وعن يساره مخزن الأسمدة والمهمات الزراعية الخاصـة بالجمعيـة التعـاونية ٠

هذا ما رأيته فى القرية ، أما ما سمعته من مدير الجمعية ، فأنا لا أريد أن أكرر عبـاراته الخاصة بالبـؤس والشقاء الذى تعرض له الفلاحون ، وكيف كان ١١ ٪ من الأهالى هم المـلاك فقط ، وكيف كانت ١٤ أسرة فى الماضى تملك ٦٥ ٪ من الأرض ٠٠ وكيف كان الناس يموتون جوعا وكيف كان يموت ست أطفال من كل عشرة قبل الثورة ٠٠

لا أريد أن أعيد هذا كله ، برغم أنه قاله ٠

والذى قاله مدير الجمعيـة عن النظام المتبـع فى تكوين الجمعية ، وفى توزيع الأرباح ، **هو أن رئيس الجمعية واعضاءها الثلاثة عشر ، ينتخبون كل عام ، وليس لهم أى امتياز ٠٠ هم فلاحـون كسواهم من الفـلاحين ، كل ما ينالونه من عضويتهم للجمعية ، هو أن ساعات اجتماعاتهم فيها ، تحسب ساعات عمل ٠٠ ولا أكثر ٠٠**

ومجلس جمعية هذه القرية بالذات يضم سيدتين ٠

أما الانتاج ، فتشرف على توزيعه لجنة منتخبة من الفلاحين ، عددهـا

سبعة .. ولا يهم أن كانوا من أعضاء مجلس ادارة الجمعية التعاونيـــة أو من سواهم .. وتقوم هذه الجنة بتوزيع المحصول ، حسب انتاج كل عضو من أعضاء الجمعية ، ومن حق أى فلاح أن يتظلم فى ظرف أسبوع .

وعمل اللجنة أن تجتمع ، ثم تقرر توزيع المحصول ، وتعلن النتيجة على باب الجمعية التعاونية ، على أن الجمعية لا تسلم كل فلاح نصيبه الا بعـد مضى سبعة أيام ، **فان كانت لأحد شكوى ، تقدم بها خـلال هذه المدة ، لتعيد اللجنة النظر فى شكواه ، فاذا لم يقتنع بموقف اللجنة ، تدخل مجلس ادارة الجمعية لبحث النزاع ، فاذا لم يقتنع الشاكى أيضا ، انتدبت لجنـة من ادارة الجمعيات التعاونية فى المنطقة ، لتبحث الموضوع كله ، وحـكمها فى هذه الحالة نهائى .**

وتوزيع المحصول يتم بالنسب التالية :

٢١٪ ضريبة للدولة ، ٤ ٪ للجمعية التعاونية ، ١ ٪ للرفاهيـة العامة ٢٣ أرباح المساهمين ، ٥٤ ٠/٠ حسب انتاج كل فلاح .

وقال مدير الجمعية اننا حينما بدأنا نظام التعـــاون فى هذه القرية سنة ١٩٥٢ ، انضمت الى الجمعية ٢٧ أسرة ، وفى سنة ١٩٥٣ أصبحوا ٤٣ أسرة ، وفى سنة ١٩٥٥ ، انضمت ٨٣ أسرة ، والآن لدينا ١٦٧ أسرة فى هذه القرية وقرية أخرى ، تجاورنا ، ونحن نزرع مساحة قدرها ٣٨٠٠ ماو .

وأضاف المدير أن هذه القرية والقرية المجاورة كلهـــا الآن منضمـة للجمعية ، واستطاع الأهالى فى هذه المدة أن يبنوا مائة منزل لأنفسهم ، من أرباحهم ، كمـا أصبح لـدى كل أسرة فى المتوسط ثلاث دجاجات ، ولدى الجمعية ٨٠ بقرة ، ومائة دجاجة تنتج يوميا ٨٥ بيضة .. وبعد أن كانت مدرسة القرية تضم ٥٠ تلميذا أصبحت تضم ٣٥٠ تلميذا فى ست فصول دراسية ، يعلمهم ثمانى مدرســين ، وفى القرية ٩٠ تلميذا فى المدارس الثانوية ، وكانوا قبلا لايزيدون عن ثلاثة ، وهؤلاء يذهبـون الى مدارسهم فى المدينة .

والجمعية التعاونية تدعو الى عقد جمعية عمومية مرة فى الشـــهر ، الا اذا دعت الضرورة ..

وأضاف مدير الجمعية أنهم الآن يستعملون الآلات الحديثة فى الحرث ، وقد أصبح كل ٣٠ ماو يحرث بحصان واحد وثلاثة أشخاص ، بدلا من ست ماو من قبل ، فضلا عن أن الآلات الحديثة عمقها فى الحرث أكبر ، ولهذا زاد انتاج الهكتار ، وأصبح انتاجه السنوى يزن من ٣٢٠ الى ٤٠٠ كاتى من الحبوب ، بعد أن كان من قبل يزن من ٢٢٠ الى ٢٥٠ كاتى ٠٠ وشققنا كيلو مترين مصارف ، عمقها ٣ قدم وعرضها ٤ قدم ، فأنقذنا ١٠٠٠ ماو من مياه المستنقعات ٠

* * *

وأعود الى احصاءات وزارة الزراعة لأجد أن **مساعدات الحكومة للجمعيات** التعاونية بلغت من سنة ١٩٥٠ حتى سنة ١٩٥٤ ، ثلاثة بليون و٦٠٠ مليون يوانا ٠

ولكى تشجع الحكومة انتاج القطن فى شمال الصين ، استبدلت الكاتى الواحد من القطن ، بثمانية كاتى من الذرة ٠

وقد زادت نسبة الانتاج الزراعى بنسبة ٢٣ر٣ ٪ وتتوقع الحكومة أن يصل انتاج الحبوب الى ٣٨٥ بليون و ٦٠٠ مليون كاتى ٠ وانتاج القطن الى ٣٢ مليون و٧٥٠ ألف بيكال فى سنة ١٩٥٧ ٠

ولكى تعم الآلات الحديثة تم انتاج ، مليون و٣٠٠ ألف محراث حديث لتوزع عامى ١٩٥٥ و ١٩٥٦ وفى سنة ١٩٥٩ سيوجد فى الصين ٦ مليون محرات تعمل فى ٨٠ مليون هكتار من الأرض ٠

وفى سنة ١٩٥٧ مفروض أن يتم أستصلاح ٧٢ مليون ماو ولكن المسئولين يقولون انهم سيتجاوزون هذه المساحة الى ١٦٠ مليون ماو ، وستزيد الأرض المزروعة ٣٨ مليون و ٦٨٠ ألف ماو ٠

وفى هذا العام تنشىء الصين أكاديمية زراعية ، ومعهدا للأبحاث الزراعية ، بجوار عشر معاهد قائمة الآن ومائة محطة للتجارب ٠ وثمانية آلاف مركز ارشاد زراعى ، تزاد فى هذا العام الى ١٥ ألف مركز ارشاد ، لتدريب الفلاحين على استخدام الآلات الحديثة ٠

وقد فتحت وزارة الزراعة فصولا لتدريب الموظفين الزراعيين على ادارة الجمعيات التعاونية .

وللدولة ٢٤٠٠ مزرعة منها ١٠٦ تستعمل الآلات استعمالا تاما .

وفى سنة ١٩٥٧ ، يصبح للدولة ٣٠٣٨ مزرعة منها ١٤١ تستعمل الآلات .

وفى الصين ١٦٩ محطة تربية حيوانات وتلقيحها ، وكلها ملك للدولة ، فيها ٥٩٠٠ حيوان ، وستزيد هذه المحطات سنة ١٩٥٧ خمسين محطة أخرى .

وسيصبح للدولة ٩٤ محطة آلات زراعية ، فى سنة ١٩٥٧

أما فى سنة ١٩٦٢ ، فسيكون وزن الانتاج الزراعى ٦٩٥ بليون كاتى ، وفى سنة ١٩٦٧ يصبح الوزن ١٥٠٤ بليون ، وسيزيد السكان الى ٨٠٠ مليون ! ولكن نصيب الفرد من الانتاج الزراعى سيكون ١٢٠٠ كاتى من انتاج المأكولات سنويا .

أما الانتاج القطنى ، فانه فى سنة ١٩٦٢ يصبح ٨٢ مليون بيكال ، ثم يصبح فى سنة ١٩٦٧ ـ ١٢٠ مليون بيكال .

وبالنسبة للأراضى المستصلحة ، فانها تصل فى سنة ١٩٦٢ الى ٤٠٠ مليون ماو ، وتصل فى سنة ١٩٦٧ ، الى ٥٠٠ مليون ماو ، وبهذا يصبح مجموعها فى سنة ١٩٦٧ ، بليون و٤٠٠ مليون ماو ، اذا أضيفت الى الأرض المنزرعة حاليا ، يصبح المجموع الكلى ، أكثر من ثلاثة بليون ماو .

أما الآلات الزراعية ، فستبدأ فى الصين فى سنة ١٩٦٠ تنتج الجرارات الثقيلة ، وفى سنة ١٩٦٧ ، يصل انتاجها الى ٧٤٠ الف جرار فى السنة كل جرار قوته ١٥ حصانا .

وأما الاسمدة فيصل انتاج الصين منها فى سنة ١٩٦٧ ، الى ١٠ مليون طن سنويا .

وتمضى الاحصاءات والمعلومات الرسمية تقرر أن الصين ستقضى نهائيا على الآفات الزراعية فى سنة ١٩٦٢ .

وفي خلال سنتين من الآن ، ستنتج أحسن أنواع القطن .

وفي خلال سبع سنين ستصل الى انتاج أحسن بذور .

وفي هذا العام ، تبدأ الدولة تصرح لملاك الأراضي القدماء أن يدخلوا في نظام التعاون ، بعد أن كان محظورا عليهم الدخول فيه .. بشرط ألا ينتخبوا في مجالس ادارة الجمعيات التعاونية ، ذلك لأن دخولهم هذه المجالس ، قبل أن تتغير عقلياتهم ، وقبل أن يتطوروا ويصبحوا مؤمنين بنظام التعاون ، فيه ما فيه من خطر يهدد كيان هذا النظام .

* * *

لأدري ماذا يحس القراء ، وقد انتهوا من قراءة هذه الارقام ؟.. بالبلايين؟

ولا أدري ماذا أحسوا وهم يتصورون أن تعداد الشعب الصيني سيزداد في سنة ١٩٦٧ ، أي بعد عشر سنوات وبضعة شهور ، مائتي مليون من البشر ، فيصبح ٨٠٠ مليون بدلا من ٦٠٠ !..

أما أنا فقد أصبت هناك ، وأنا أسمع هذه الأرقام بدوار ، وأحسست أن هذا الشعب ، سيصبح في يوم ما ، كالهواء .. كالفضاء .. لا تستطيع أن تجد وسيلة لحصره ، أو احصائه !

انهم هناك يشجعون النسل .. يشجعونه عمليا ، بتخفيف قيود الزواج ، وتبسيط اجراءاته ، وتشجيع النساء على العمل والكسب والانتاج ، وتخفيف قيود الأسرة ، من ناحية مصروفات التعليم والعلاج ، وما الى ذلك كله .

والغريب أنهم يؤكدون أن المستوى سيرتفع برغم هذا !.

* * *

على أن هذا ليس كل البرنامج .. فانه يتوقف الى حد كبير على اعداد الناس لتنفيذه .. على تعليمهم تعليما اشتراكيا ، يتفق مع هذا الاتجاه .

وبجوار الكتب والنشرات والمحاضرات التي تلقى عليهم ، شاهدت عددا من الأفلام السينمائية القصيرة التي تتجه كلها اتجاها اشتراكيا يخدم أغراض الدولة ، في التحويل الاشتراكي .

وصورة الريف الصينى فى برامج اصلاح الدولة لاتكتمل ما لم نعرض لعدة مشروعات أخرى تتصل بالزراعة اتصالا مباشرا ، وان تكن لها نواح أخرى تتصل بها ..

فالنهر الأصفر ، أو نهر الأحزان ، كما كان يسميه الصينيون .. هو ثانى أنهار الصين ، يبلغ طوله ٤٨٤٥ كيلو مترا ، ويخترق عدة مقاطعات ، وكان دائما مبعث الأحزان للصينيين لكثرة الاهوال التى كانوا يتعرضون لها من جراء فيضاناته ..

ومن التواريخ التى لاتنسى ، سنة ١٩٤٧ ، وهو تاريخ من أسوأ تواريخ النهر الأصفر ، وهو فى الوقت نفسه يقترن باسم الجنرال تشانج كاى شيك .

ففى هذا العام هجم اليابانيون ، فأراد الجنرال أن يوقف توغلهم ، فلما لم يفلح ، قرر أن يكسر ضفة النهر الأصفر ، فتغرق مساحة كبيرة تقف زحفهم وتوغلهم .

ولكنه؛ وان حال دون تقدم الزحف اليابانى ، فقد أغرق ٨٠٠ الف صينى ماتوا فى عام واحد ، ضحايا لهذا التهور الطائش .

من هنا أصبح اسم النهر الأصفر يساوى عند الصينيين نهر الأحزان .

وفى بكين معرض كبير للنهر الأصفر .. معرض تحتاج دراسته الى عدة أيام ، ويحتاج المرور عليه مرورا عابرا الى نصف يوم .

وهو معرض مجسم ، بالصور ، والاحصاءات والمشروعات ، والمستقبل الذى سينتهى اليه هذا النهر المتمرد .

ولست أنوى هنا أن أصدع رؤوس القراء ، بتسجيل الأرقام ، ولا بذكر الجزئيات ، وأنا أكتفى بأن البرنامج الموضوع لهذا النهر ، سيجعله يتحول بالتدريج الى نهر الأفراح .

الجسور الضخمة التى ستقام له ، وقد تم منها جزء كبير .

ثم الخزانات ، ومحطات القوى الكهربائية، والمصانع التى ستترتب على اقامة هذه الخزانات ومحطات القوى .

ثم المساحات الواسعة من الاراضى التى ستجفف ، وتتحول الى أراضى صالحة للزراعة ، فضلا عن تنظيم وسائل الرى ، بعد السيطرة على أمواجه

الغادرة ، مما سيترتب عليه اصلاح مساحات أخرى من الأراضى ، عن طريق تنظيم الرى .

ثم رفع مستوى الانتاج الزراعى فى جميع الجهات التى يتخللها النهر ، لأن السيطرة على مياهه ، وتسهيل الرى ، سيجعل الأراضى المحيطة به تزرع أكثر من زراعة واحدة كل عام .

وتحويل مجرى النهر بعد ذلك الى ممر مائى ممهد ، صالح للملاحة النهرية .. واستغلال الجزر الناتجة فى اقامة مصايف ومشاتى ..

كل هذا موضح فى المعرض بالرسم البارز ، بشكل علمى بديع .. بل انك فى نهاية المطاف تدعى الى عرض سينمائى ، لترى تطور النهر الأصفر ، ولتلمس الفروق بين الأمس واليوم .. ثم بين اليوم ، وماذا سيكون عليه حال النهر فى المستقبل .

وباختصار سيتحول النهر الأصفر الى نهر أخضر .. أخضر فعلا كما رأينا فى المعرض .. فان استمرار التهذيب ، سيؤثر على قاع النهر ، فيتحول بالتدريج الى نهر أخضر ، مياهه صافية هادئة ..

وقد علمنا أن الخبراء الروس شاركوا بمجهود كبير فى وضع المشروع .

* * *

فاذا تركنا النهر الأصفر ، وجدنا خزانا فى مكان اسمه « كوانتيه ريسفوار » على بعد خمس ساعات بالقطار من بكين يستغل فى اقامة محطة قوى كهربائية .

وقد كنا هناك قبل افتتاح المحطة بيوم « واحد » ، ولعلها قد بدأت عملها الآن ، فانه كان مقدرا لها أن تبدأ فى أواخر ديسمبر من العام الماضى .

وهذا المشروع سيمد أربع مدن بالكهرباء ، منها بكين ، كما سيحيى المنطقة كلها صناعيا ، فانه سيمكن من اقامة بعض الصناعات ، وستتحول المنطقة الى حدائق للفاكهة ، وغابات .. أما عن المياه المخزونة ، فانها ستتحول الى ساحة رياضية للتزحلق على الجليد فى الشتاء ، وقد هيئت منذ الآن بأضواء بديعة ، تحيل الليل الى نهار .

وقد عاون خبراء المان فى اقامة هذا المشروع .

الفكرة اذن ، هى تنشيط الريف ، وتعميم محطات القوى الكهربائيـة بين أجزائه ، رغبة فى نشر بعض الصناعات فى الريف ، بالتدريج .

***

مشروع ثالث رأيناه فى « هانكاو » وهو مشروع كوبرى نهر « اليانتزا» ومقصود به ربط وسط الصـين ، الذى ظل هذا النهر يفصله حتى الآن ـ فلا تعبره القطارات ولا السيارات ، وطريقة العبور الوحيدة هى المراكب .

وفضـــلا عن تيسـير المواصـلات ، فان المشروع سيربط المنطقة كلها ببعضها ، رغبة فى رفع المستوى الاقتصادى ، فى هذه المنطقة الزراعية ، والتى توجد بها بعض الصناعات الاستهلاكية الخفيفة .

ويعتبر الصينيون هذا الكوبرى من أهم المشروعات التى تنفذ الآن ، فانه سـيغير مستقبل منطقة هامة تتوسط الصـين .

***

اذن فبجوار التطور بالزراعة الى النظام الاشتراكى ، فان هنـــاك اتجاها يرمى الى ادخال بعض الصناعات بالريف ، رغبة فى رفع مستواه ، وتهيئة وسائل العمل لعدد كبير من الفلاحين ، سيزيدون قطعا عن حاجة المزارع كلما أدخلت عليها وسائل الزراعة الآلية ، وكلما تطورت فى طريق الزراعة الجماعية .

وأقل وصف لمثل هذه السياسة ، انها بعيدة الأمد ..

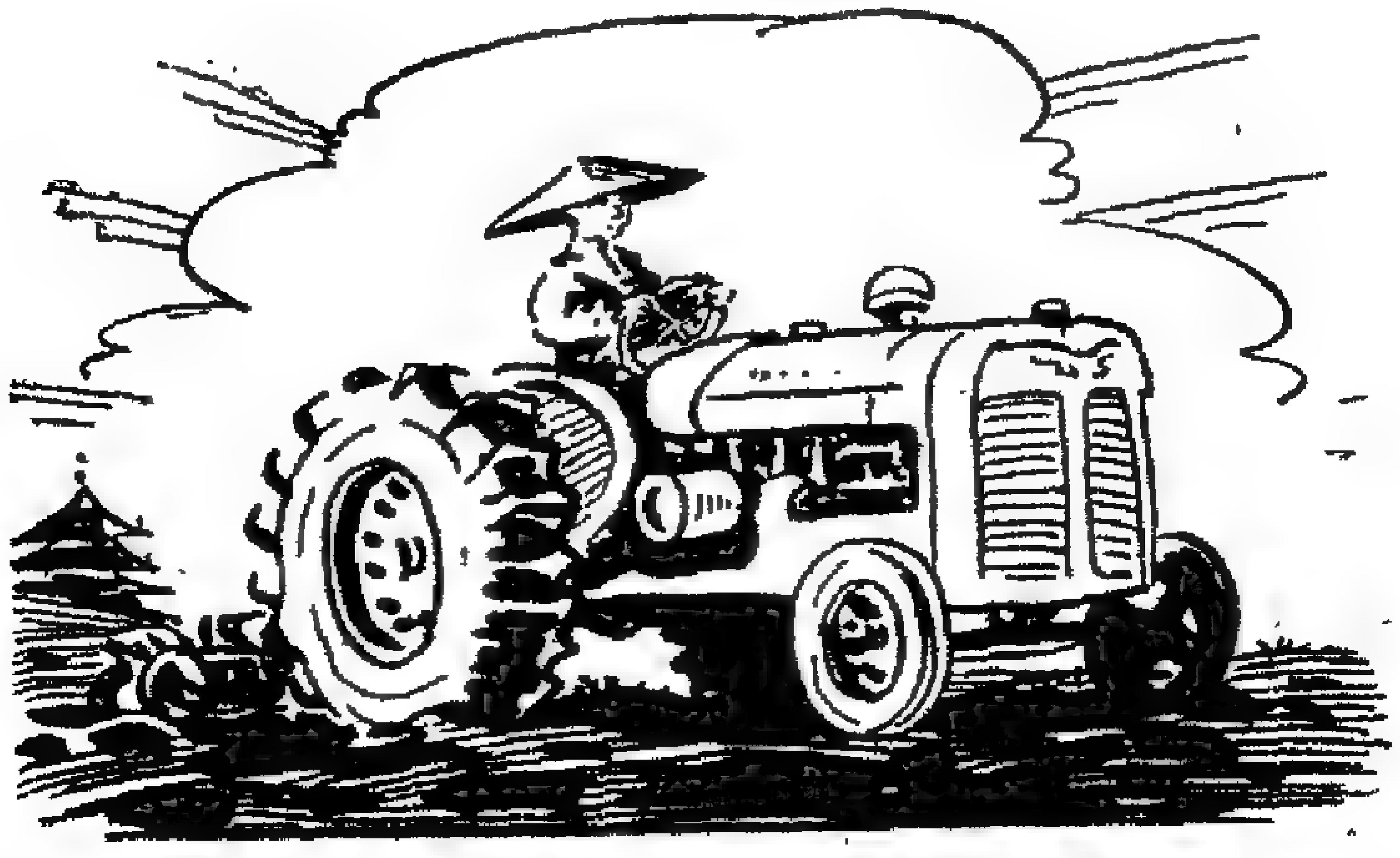

بنك مصر

شركة مساهمة مصرية س. ت ٢ القاهرة

مؤسس الصناعات الكبرى وشركات مصر

مركزه الرئيسي ١٥١ شارع محمد فريد (عماد الدين سابقا)

يؤدى جميع أعمال البنوك

فرع الإسكندرية ١٩ شارع طلعت حرب باشا

للبنك فروع ومكاتب ومندوبين بأهم مدن القطر المصري

وله مراسلون في جميع أنحاء العالم

قسم صندوق التوفير يشجع على الاقتصاد والادخار

قسم تأجير الخزن الحديدية للإيجار بشروط مناسبة

الكتاب القادم

شخصيات ومبادئ

بقلم أحمد بهاء الدين

ما موقف الصين من الصناعة ؟

ان ماوتسى تونج ، راعى التعاونيات الزراعية ، هو نفسه الذى أكد فى عدد كبير من خطبه ، ومقالاته ، قبل نجاح الثورة وبعدها ، أن مستوى المجتمع الصينى لن يرتفع ويستقر ، ما لم يتم التصنيع ·· فعن طريق الصناعة يستقل الاقتصاد الصينى ، وعن طريق الاستقلال الاقتصادى ، تثبت دعائم الاستقلال السياسى ·

وقد تضمن تقرير الخمس سنوات ، الذى تحدثنا عنه فى الفصل السابق ، برنامجا صناعيا ضخما ، ينفذ جنبا الى جنب ، مع التطور الزراعى ، وسواه من ألوان التطور ، بحيث يرتفع المستوى العام ، ارتفاعا منسقا مضطردا ·

والحقيقة التى وقفت عليها بعد زيارتى للصين ، ومشاهدة التطور الصناعى فى مختلف المدن التى زرناها ، هى أن الصناعة الصينية ، تلقت عونا خياليا من الصناعة السوفيتية ·· والدول التى تسميها « دول الديموقراطيات الشعبية » ··

فى كل مكان تسمع هذه الحقيقة ·· وتراها وتحسها ·

وكلما زرت مصنعا فى الصين ، خاصة فى الشمال الشرقى ، حيث بدأت الصناعات الثقيلة تنتج انتاجا ضخما ·· قال لك مديره ، أو نائب مديره ، أو المتحدث الرسمى باسمه : « اننا استطعنا ، بقيادة الحزب الشيوعى الصينى ، أن نحقق ··· » الى آخر الكلام ·

هذه الجمل تكاد تكون تقليدية ، تسمعها فى كل مصنع ، ومنجم ، وتراها أيضا ··

تراها فى لافتات علقت بين آلات المصانع ، تحمل التقدير للاتحاد السوفيتى ، والشكر لخبرائه وفنييه ·· وتحض العمال على العمل والانتاج ، لتغطية الانتاج المطلوب فى أقصر من الوقت المحدد ·

وتحسها حقيقة واقعة ، عندما تجد هذه الوثبة العجيبة فى الصناعة الصينية ٠٠ تحس أن اليد التى امتدت اليهم بالمساعدة والعون ، قدمت لهم الكثير ، ولا زالت تقدم اليهم كل عون يحتاجونه ، ليتحقق برنامج التصنيع ٠٠

على أن هذا ليس معناه تجريد الصين ، من المجهود الكبير الذى بذل ، فلولا أن المساعدة والعون ، صادفت حقلا خصبا من العاملين ، وعقلية متحمسة من الفنيين ، وارادة صارمة من ادارات الدولة ، لما أمكن لهذا العون ، وهذه المساعدة أن تؤدى الى هذه النتائج ٠

وقد تضمن برنامج الخمس سنوات اقامة ثلاثة آلاف مصنع ومنجم فى الفترة الأولى من ١٩٥٣ الى ١٩٥٧ ، منها ٦٩٤ مصنع ومنجم كبير ، بما فى ذلك المصانع الثقيلة ، كالحديد والصلب ومحطات القوى الكهربائية الحرارية ، ومناجم فحم وبترول ومصانع ماكينات ، وسيارات ، وطائرات، وصناعات كيمائية ٠

وقد خصصت للاقتصاد القومى ميزانية قدرها ٧٦ بليون و٦٤٠ مليون يوانا سنويا ، وهى تقابل ٧٠٠ مليون ليان من الغطاء الذهبى ٠

ومن هذه الميزانية خصص مبلغ ٤٢ بليون و٧٤٠ مليون يوانا لاعادة البناء وزيادة الانتاج ٠

ولعل أهم المشروعات الصناعية الضخمة فى الصين ، يتمثل فى شركة آنشان لصناعة الصلب فى الشمال الشرقى ٠

وقد طرقت سمعى كلمة شركة فى هذا الجو الاشتراكى ، فتركت فيها دويا ، ولكننى علمت أن المقصود بشركة هنا تعدد مصانع المؤسسة ، وتداخل منتجاتها ٠٠

هذه المصانع التى أقامتها الدولة ، للصناعات الثقيلة والاستهلاكية وكلها ، مع جميع المصانع الأخرى ، تعمل لتحقيق برنامج مرسوم ، وانتاج كميات معينة يحددها هذا البرنامج ٠٠

فمن يضع هذا البرنامج ؟ ٠٠٠

من المختص بدراسة امكانيات كل مصنع ، وكل مؤسسة صناعية ، ووضع برنامج عام لانتاجها ؟ ٠٠

خروشتشيف وماوتسي تونج ... صناعتان تتعـــاونان

الدولة طبعا .. تشاركها نقابات العمال .

وتتضح أهمية نقابات العمال ، من العدد الضخم المشترك فى الاتحاد العام ...

قال رئيس الاتحاد أن عدد أعضائنا اثنا عشر مليونا ونصف مليون .. وساعتها أحسست وأنا أطيل النظر اليه ، انني أجلس مع رجل ، من أخطر رجال الصين ! .

ومجلس هذا الاتحاد مكون من ٩٩ عضوا يمثلون مختلف الصناعات ، وعمال الزراعة الجماعية أيضا ، ومدة عضوية المجلس اربع سنوات ، أما مجالس نقابات الصناعات فمدتها سنتان ، وأما الاتحادات الصغرى بالمصانع ، فمدة مجالسها سنة واحدة .

والنظام هو أن يدفع كل عضو فى نقابة ١ ٠/٠ من أجره اشتراكا فيها . وبهذا يتكون للاتحاد العام كل عام ٨٠ مليون يوان تقريبا .

هذا وقد قرر الاتحاد العام تخصيص مكافآت للعمال المنتجين فى صناعات الحكومة فوق أجورهم العادية ، تشجيعا لهم ، على أن تدفع منها نسبة ٠/٠٥ للاتحاد .

والاتحاد يخصص ٢٠ ٠/٠ من ميزانيته لمساعدة العمال الذين تثبت حاجتهم الى المساعدة .

ويمثل العمال فى المجلس الوطنى ١٢٧ نائبا ، منهم ١٧ عاملة .

وقانون الاتحاد لا يلزم العامل ان ينضم الى عضوية النقابات ، ولكنه من ناحية أخرى ، يقصر الامتيازات التى يمنحها على أعضائه ، مما أدى الى أن أنضم أكثر من ٩٠ ٠/٠ من العمال الى عضوية النقابات ، واصبح له ١٨ منظمة عمالية ، و ٢٠٠ الف نقابة .

وسن المعاش للعاملة كما ينص قانون الاتحاد هو ٤٥ سنة ، وللرجل ٥٥ ، وفى حالة المعاش يتقاضى من ٥٠ الى ٧٠ ٠/٠ من آخر أجر له ، حسب السنوات التى قضاها فى العمل ، فاذا اراد بعد هذا أن يستمر فى أداء عمله ، فان حصوله على أجره ، لا يمنع حصوله على المعاش .

وللاتحاد مستشفياته ، وعياداته ، ونواديه ، ومعاهده ، ونظام العلاج بالنسبة لأعضائه ، هو أن يعالجوا مجانا أما أسرهم فتدفع نصف قيمة العلاج .

والاهتمام بالصناعة وصل فى الصين ، الى درجة أن قامت مدارس صناعية كاملة ، ومعاهد ، ودراسات مختلفة .

وفى « سنيا » زرنا جامعة كاملة للصناعات ، تضم ثمانية كليات للتعدين والهندسةالميكانيكية والقوةالكهربائية ، وهندسة الحديدوالصلب ، وصناعة المعادن ، والمبانى .

جامعة تضم ٦٢٠٠ تلميذا و ٧٠٠ من أعضاء هيئة تدريس ، منهم ٧٩ استاذا ، و ٥٤ هيئة للابحاث الفنية من هيئة التدريس ، و ٩٠ معملا ، ومكتبة فيها ٤٠٠ الف مجلد .

جامعة من ٨٥ الى ٩٠٪ من طلابها يتعلمون مجانا ، ويسكنون مجانا ، وتصرف لهم الكتب والأدوات والملابس مجانا ، ويتقاضون بعد هذا مصروفا قدره ١٦ر٥ يوانا .. والباقون من الطلاب ، وهم الذين فى حالة مادية تسمح لهم بأن يدفعوا نفقات أكلهم ، تتقاضى منهم الجامعة ١٤ر٥ يوانا كل شهر .

جامعة فيها مدرسة ابتدائية لأولاد الأساتذة ، ودور حضانة وعيادة ومكتب بريد .. وبنك .

جامعة توفد طلابها الى المصانع ليطبقوا ما درسوه فى المصانع والمعامل .

جامعة طلبتها ممثلون فى مجلس الجامعة ، وهىممثلة فىمجلس المقاطعة ، وتدرس فيها بجوار الصناعة والعلوم البحتة ، علوم السياسة والاقتصاد .

* * *

هذا هو برنامج التصنيع فى الصين ..

وهذه هى الصناعات التى تقيمها الدولة لتنفيذ البرنامج .

وهو برنامج ، تعمد الحكومة فيه ، الى أن توزع مسئوليته على الشعب ، فيحس التبعة الملقاة على عاتقه ، كما يحس أن أية ثمرة يحصل عليها ، من انتاجه وصنع يديه ، وأنها عائدة اليه .

ثم هذه النقابات الضخمة .. والمساعدات العجيبة التى تدفع الانتاج القومى العام ..

هذه الدراسات التى تنظمها ، ورفع المستوى المهنى بين العمال ، وتدريبهم على تحمل المسئولية العامة ، واعدادهم اعداد صناعيا فى مستوى خاص ، يخدم الصناعة ، والتصنيع ، والتقدم الصناعى .

وتنسيق التعليم مع حاجات البلاد ، بفتح الأكاديميات الفنية ، والمعامل ، ومحطات التجارب ، والجامعات الصناعية •

* * *

كل هذا ، لا بد أن يؤدى بالضرورة ، الى نهضة صناعية •

وسواء كانت هذه النهضة اشتراكية او رأسمالية •• وسواء قيل عنها أنها تحقق عن طريق سيطرة الدولة ، وتحكمها ، وتعسفها ، أو قيل عنها غير ذلك •• فستستمر نهضـــة •• قوية •• ضـــخمة •• ترفع مستوى الدولة ، وترسى اقتصادها على أسس متينة •

والواضح أن هناك تنسيقا واضحا بين تطور الصناعة ، والتطـــور فى ميادين الانتاج الأخرى ، كالزراعة مثلا •• وبهذا تتحول دولة ضخمـــة كالصين ،الى وحدة متناسقة ، موحدة البرامج ، منسقة المنهج ، فى سبيل الانتاج القومى العام ، وتوفير حاجات البلاد •

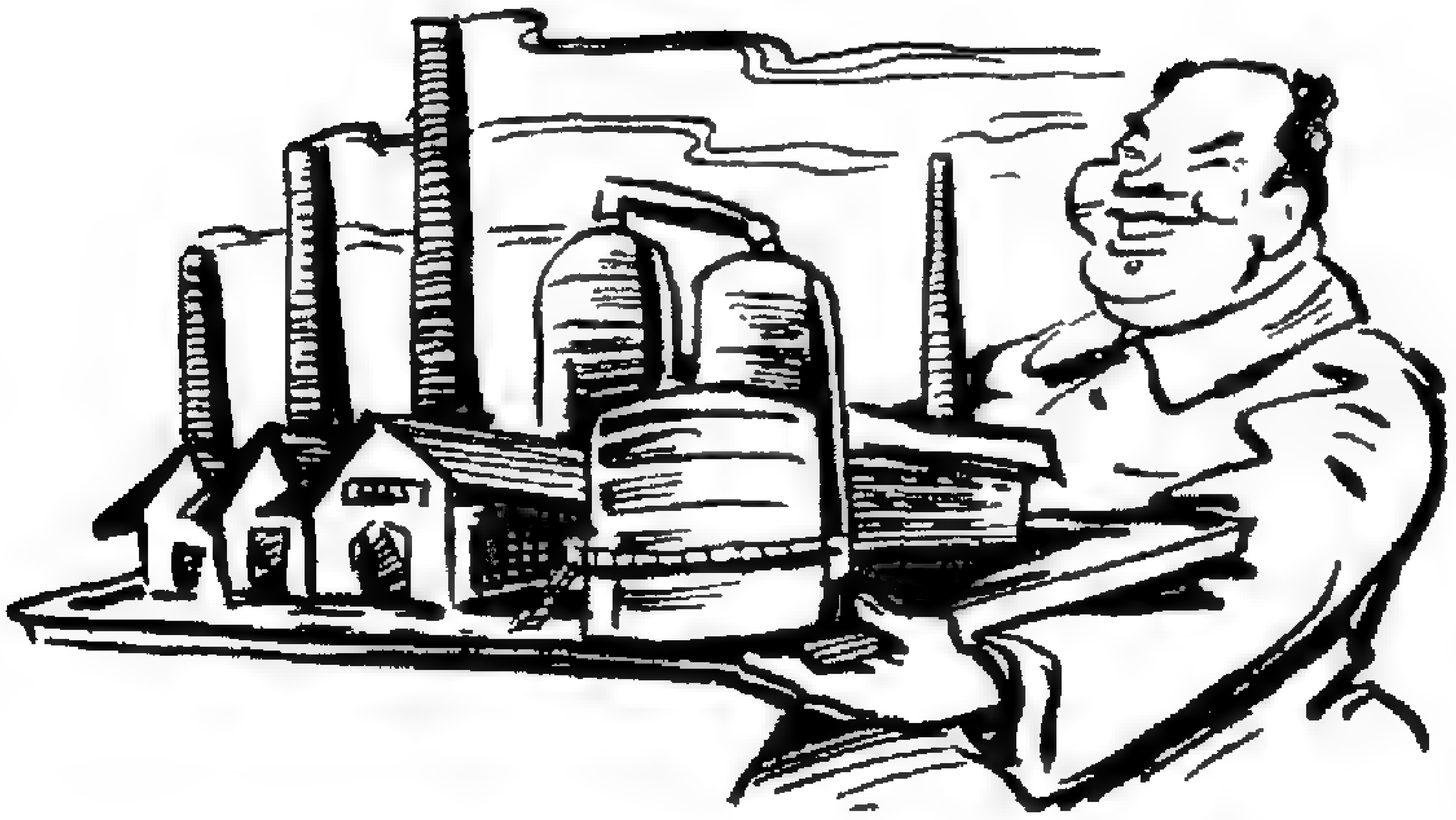

أهم الأحداث وأخطر الأسرار
في
التحرير
كل ثلاثاء
تطل على
الشرق والغرب
فتأتيك بالأنباء
والقصص والآراء

العائلة الكبيرة العدد

تفضل حفلة الساعة ٣

بدار سينما

لأن كوبونات الجمهورية للسينما

تمنحها في هذه الحفلة

تخفيضاً قدره ٥٠٪

احرص على جمع الكوبونات التي تنشر في جرائد:

الجمهورية والبروجريه والبورص اجبسيين والاجبشيان جازيت ومجلتي التحرير والرسالة الجديدة

بقى أن نعرف كيف صفى النظام الحـــــالى ‥ أو كيف يصفى الأعمال الخاصة ! ‥ **كيف يصفى الاقتصاد الرأسمالى فى البلاد ؟**

ورد فى الدســـتور اعتراف الدولة برأس المـال ، وحمايتها له ، وتمكينها اياه ، من مباشرة نشاطه ‥ وكذلك احترمت الدولة الملكية الخاصة ، وميراث الاملاك الخاصة .

ولـكن الدستور فى فقرات أخرى منه ، نص على أن من واجبات الدولة ، التطور بالاقتصاد القومى الى الاشتراكية .

فمن ناحية ‥ حافظت الدولة على رءوس الأموال الوطنية ، واحترمتها . وتعهدت بحمايتها ، وتمكينها من النشاط .

ومن ناحية أخرى ‥ ألتزمت بنصوص الدستور ، بأن تتطور بهـذه الرءوس أموال الى الاشتراكية ، وتحولها الى ملكية كل الشعب ‥ كمـا التزمت بتوفير العيش للطبقـــة الرأســمالية لفترة ما ، تتعلم فى أثنائها ، لتكسب قوتها بعملها الخاص .

ولنبدأ بالتجارة ...

أولا حددت الدولة الأسعار ، ثم اشترطت على كل محـــــل تجارى ، أن يعرض أنتاج الدولة من البضائع ، بربح محدد ‥ وله فى هذه الحـــالة أن يعرض أى انتاج آخر ، بجوار أنتاج الدولة .

وبعد فترة ، يكون انتاج الدولة قد استوعب جميع انواع الانتـــاج ... تشترط الدولة عرض منتجاتها فقط ... بربح محـدود ... وتتحـــول المتاجر فى هذه الحالة الى مخازن توزيع ، تتقاضى نسبة من الربح .

وفى الوقت نفسه ، تفتح الدولة محلات تجارية ضخمة ، تعرض فيهـــا منتجاتها ، بنفس الأسعار ، وتصبح منافسة خطرة فى السوق ... فهـــى أولا تملك وسائل أكثر للعرض ، ثم هى أقدر على دفع أجور أحسن لعمالها ، فتحتكر أحسن العمال فى السوق ...

وتأتى الخطوة التالية ، وهى أن تشترط الدولة نظاما خاصا يســـتدعى توسعا فى المحال ، لاتستطيعه أمكانياتها ... فتدخل الدولة شريـكة ، بأن تقوم هى بالتوسع ، وبأمداد المحل بالبضائع ... وتشـــترك فى الادارة والاشراف على سياسة المحل .

وبالتدريج تزداد نسبة الدولة فى رأس المال ، وتنخفض أرباح رأس المال نفسه ، فلا تتعدى الارباح التى تدفعها البنوك ، ويكون أصحاب رأس المال قد تغيروا ... تغير فيهم التفكير الطبقى ، نتيجة لدراسات تنظمها الاحزاب والاتحادات والمنظمات ونقابات العمال ، فيصبح من السهل التطور بهـم الى عمال ، يكسبون قوتهم من عملهم الخاص .

* * *

هذه الخطوات نفسها تتخذ فى الصناعة ، فتبدأ الخطوة الأولى بمد الدولة للمصانع بالمواد الخام ، لتمكنه من الانتاج ، وتستولى على انتاجه بربح محدود

ثم تشترط الدولة على المصنع انتاجا محدودا ، فاذا لم يستطع تلبية هذه الرغبة ، قامت عنه هى بالتوسع ، نظير نسبة لها فى ملكية المصـــنع ، وفى هذه الحالة يصبح لها ممثلون فى الادارة يرسمون سياسة المصنع ، ويضعون البرنامج المطلوب للانتاج .

ثم ترسم سياسة عامة لكل صناعة ، بحيث يتعاون الاقتصـــاد القومى ، والاقتصاد الفردى تعاونا كاملا ، لتحقيق حاجات الأمة .. ويتحول الانتاج فى هذه الحالة الى نفس النظام المتبع فى الصناعات المؤممة ، ويزول التناقض فى سياسة الانتاج ، وسياسة العمل ، بين الصناعتين .

عملية غسل مخ لتغيير تفكير المليونيرات في الصين

ثم توضع سياسة عامة للصناعة فى كل الصين ، على أســـاس تأميمها جميعا بالتدريج ، وعن طريق تحويل أصحاب رءوس الأموال من طبقــة الى طبقة أخرى .

وهكذا يتم التطور ، وينتهى كل نوع من التناقض بين الصـــناعات من ناحية ، وبين الصناعة والتجـــارة من ناحية .. كما ينتهى نظام تركيــز الصناعة فى اماكن معينة من الدولة تحقيقا لاقصى ربح ، كلما قرب الانتــاج من مراكز المواد الخام مثلا .

ثم يتم للدولة التخلص من مشكلات الضريبة ، وتحديدها ، ومراقبــة دفعها ... الى غير ذلك كله من مشكلات .

أما رأس المال الاجنبى فلم تتخلص منه الصين بالمصــادرة ... وآثرت الاسلوب السلمى فى معاملته .

لقد هرب بعضه بعد انتصـــار الثورة ، والبعض الآخر تعرض لمنافسة الدولة ، ولم يسمح له باستيراد أموال من الخارج ، تدعم نشـــاطه ... فأصيب بالشلل ، وبعضه أفلس ، وبعضه الآخر طلب تدخل الحـــكومة لمشاركته ، والتطور بميدان نشاطه الى التأميم .

والذى لاحظناه أن الصين ، ونحن نغادرها فى الثلث الأول من شهر يناير من هذا العام ، كانت كلها تعيش فى رقصة شعبية ، لاتنتهى .

الأعلام الحمراء ترفرف على المحال ، حتى فى المدن الصغرى .

ومئات العمال ... بل والآلاف منهم يسيرون فى مظاهرات صـــاخبة ، تتقدمها الموسيقى ، وتتخللها الألعاب النارية ، حتى والثلج يتساقط فى غير رحمة ، والبرد يكاد يفتك بالأبدان ، يحتفلون بنظام العمل المشترك ، بين الدولة والاعمال الخاصة .

لقد كان التقدير ان يتم ذلك فى سنة ١٩٥٧ ، فتم قبل الميعاد بعام ، فى يناير ١٩٥٦ ٠

واجتمعت أسر الرأسماليين ، واطفالهم ٠٠٠ يحتفلون بدورهم بهذا النظام المشترك ٠٠٠

أنت تبقى على اخلاصك !

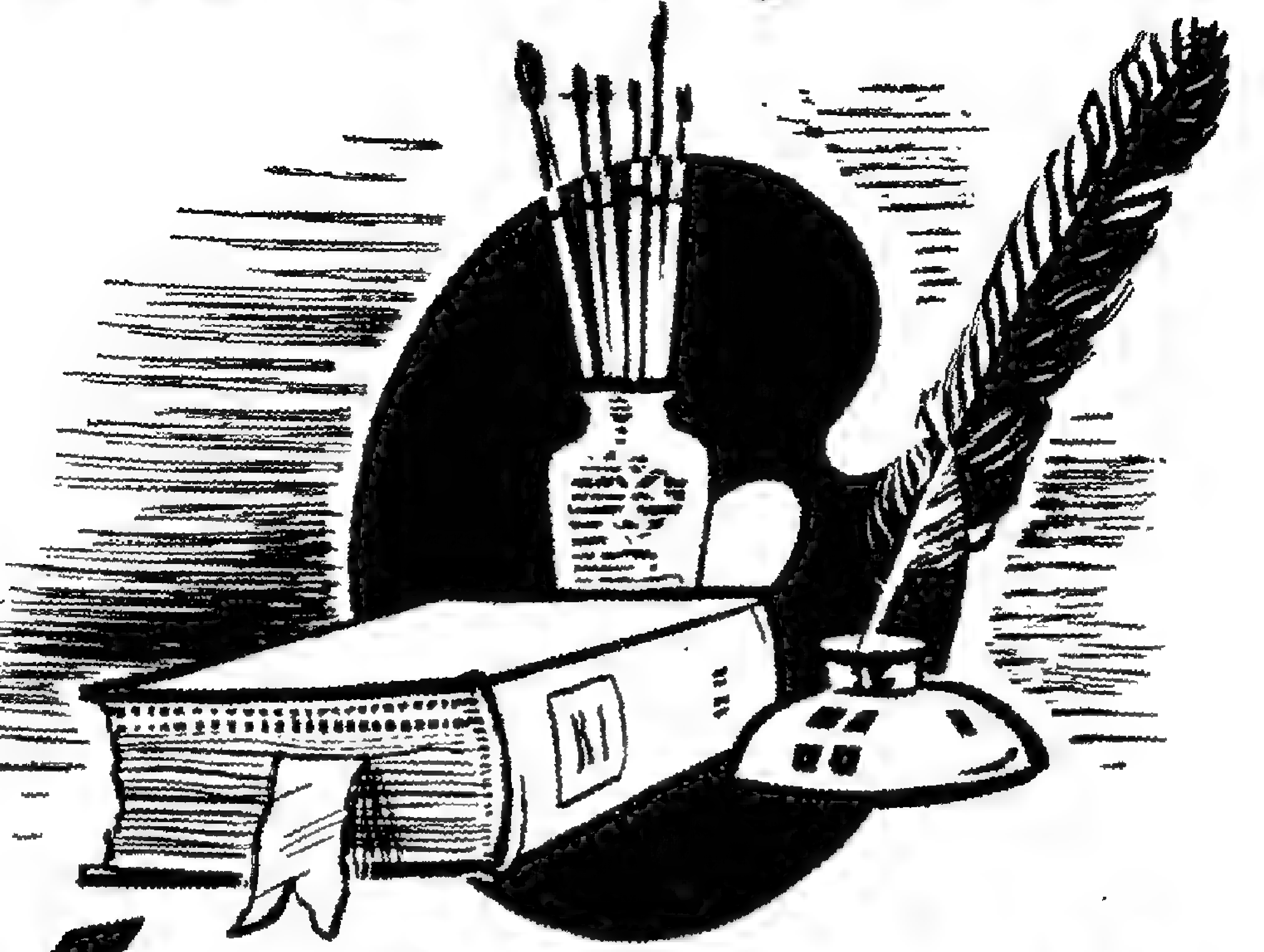

للرسالة الجديدة

لأنها تقدم لك أدبًا رفيعًا في مادته، جميلا في عرضه، يلائم ذوقك ونفسيتك.

ولأنها تقدم لك ألوانًا من الثقافة لخدمتك وإسعاد حياتك.

ولأنها تقدم لك فنا تكتمل له كل مظاهر التجديد.

هل انتهى من هذا الكتاب ، دون أن أعرض للحياة الفكرية ، والثقافية ، والفنية فى الصين ؟ .. اذن لا أكون قد كتبت عن الصين .

أن الصناعة ، والزراعة والتجارة ... وما اليها كلها مظاهر للتقدم المادى فى الأمة وفى هذا ، يمكن أن تتشابه الأمم ، أو تتقارب .

وحتى الذين ينادون اليوم ، بأن الصناعات يجب أن تؤقلم ، قبل أن تنقل لايستطيعون أن ينكروا أنه برغم هذه الأقلمة ، فان الأسس تستمر على أى حال واحدة .

أما فى المسائل الفكرية ، فالأمر يختلف تماما ...

أن الحياة الفكرية ، والثقافية ، والفنية ... فى بلد ، هى طابع هذا البلد .. ومهما حدث من تأثير وتأثر ، فان الطابع الخاص لبلد ما يستمر شيئا قائما بذاته ، لا يتغير جوهره الأصلى .

فما الشأن فى حياة الصين الفكرية ،والثقافية ، والفنية ؟.. وهل تأثرت هذه الحياة بالنظام الجديد ؟ .. ومامدى الصلة بين القديم والجديد ؟

القاعدة ان الشعوب ذات الحضارات القديمة ، تعمق بينها الحياة الفكرية والثقافية والفنية .. فتحس أنها عنصر أصيل من عناصر وجودها .. والذى لاحظته أن هذه الاصالة الفكرية ، والثقافية ، والفنية قد تتأثر بالمذهب ، وبلون الحكم ، وبالتيارات السياسية ... ولكنها تستمر ثابتة على قواعدها القديمة ، لاتهتز ، ولا تضطرب .

وفى الصين .. تأثرت هذه الحياة بالنظام الجديد ، ولكن اساسها ظل كما هو ، أقدم من النظام ، وأعمق من المذهب .

ففى الأدب ، ظل الأدب الصينى هو هو ، من ناحية ميله الى العمق الفلسفى التقليدى ، فى بساطة ووضوح .

وفى الفن ... فى الموسيقى والغناء ، تجد الالحان هى نفسها ، الالحان المستمدة من الطبيعة الصينية ... وكذلك طريقة الأداء .

وفى المسرح لاتزال فكرة الرمز قائمة فى الأوبرا ـ خاصة أوبرا بكين ـ

وهى تغنى عن المناظر ... كما تجد هذه الفكرة لاتزال شائعة فى الرقصات الاستعراضية ، حتى الجديدة منها .

والواقع أن التمسك بالقديم ، والاعتزاز به ، شائع فى الصين ، وان كانت فكرة التعصب ، غير قائمة لا فى الأذهان ولا فى الانتاج الفكرى .

على أن الذى لاشك فيه أن النظام الحالى يهمه أن يتجه الانتاج الفكرى اتجاها اشتراكيا ، ومعنى هذا ، ان يعبر عن حاجات المجتمع الجديد ، ويصور حياة العامل والفلاح ، والتعاون فى القرية ، وفى المصنع ، وفى الأسرة ، والآمال الكبيرة التى يتطلع اليها النظام الجديد .

ومن أجل هذا نص فى الدستور الصينى على « **أن الجمهورية الشعبية الصينية تضمن للمواطنين ، حرية البحث العلمى والابداع الأدبى والفنى وسائر النشاطات الثقافية ، وتشجع الدولة عمل المواطنين الأبداعى فى ميادين العلم والتعليم والأدب والفن وسائر النشاطات الثقافية ، وتسدى اليهم المساعدة** » .

وفى برنامج السنوات الخمس وردت النصوص التالية :

« **أننا مقتنعون بأنه ينبغى أن توجد السبل ، لتحقيق حاجات الناس الثقافية والتعليمية ، وتدل الاحصاءات على أن تقدم الثقافة والتعليم حتى سنة ١٩٥٢ ، قد تجاوز الحدود التى كانت تقف عندها قبل الثورة ، وعلى أساس هذا التقدم يقوم برنامج الخمس سنوات فيما يتصل بالناحية الثقافية .**

« **فمثلا لقد ضاقت المدارس الابتدائية بحاجات المتقدمين للالتحاق بها ، وضاقت المدارس الثانوية عن أن تتسع للذين انتهوا من دراستهم الابتدائية .. وهكذا .. ولكى نتدارك ذلك تشجع الدولة المواطنين ، على أن ينظموا بأنفسهم تعليما ابتدائيا ، وتعليما للفلاحين فى أوقات فراغهم ، وفرقا تمثيلية وموسيقية للهواة ، وغير ذلك .. وستقوم الدولة بتقديم المساعدات المختلفة والتوجيهات ، لمثل هذه التنظيمات .**

« **كما أن أجهزة الدولة ستقوم بدورها بقدر الطاقة ، بفتح الفصول ، والمدارس الليلية ، والتعليم بالمراسلة ، لتمكين الشبان الذين لم يستطيعوا اتمام تعليمهم ، من رفع مستواهم الثقافى والعلمى ، فى اثناء تأديتهم أعمالهم .**

« ان رفع مستوى حياة الناس ، يمكن أن يتحقق بشيء واحد ، هو التقدم المستمر ، والحياة السعيدة يمكن الوصول اليها بشيء واحد . هو مجهود الناس انفسهم .

اننا واثقون أنه نتيجة للاتجاه نحو الصناعة والعمل ، وانصراف مجهود الستمائة مليون مواطن الى الانتاج ، ونتيجة لارتفاع القدرة الانتاجية فى الصين ، تطبيقا لبرنامج الخمس سنوات ، فانه سيمكن أن يرتفع مستوى المواطنين ماديا وثقافيا . وهذا هو الطريق الوحيد لرفع مستوى حياة الناس وليس هناك طريقا آخر .. أقصر »

ولعل هذا البيان ، يوضح لنا الحركة الثقافية والفنية العامة ، التى تنتشر فى أنحاء الصين الآن بين اعضاء المنظمات المختلفة .

الفصول الدراسية الليلية .. والمحاضرات التى تلقى فى كل قاعة من القاعات .. وفرق الهواة التمثيلية والغنائية والموسيقية .. والدراسات المختلفة فى السياسة والاقتصاد .

هل ذلك تجده ، فى نقابات العمال ، وبين طلاب المدارس والجامعات وبين الموظفين ، وبين كل نوع من المنظمات ، خاصة حينما يكثر عنصر الشباب .

أما الرسم والفنون الجميلة الأخرى ، فانه أصبح مألوفا أن تجد عددا من طلاب الفنون وطالباتها ، والرسامين وقد جلسوا على مقاعد خشبية صغيرة ، فى أى مكان .. فى الفندق أو فى ركن من الشارع ، أو فى الشارع ، أو فى مواجهة منظر طبيعى جميل ، ينقلون هذا المنظر على أوراقهم .

وقد وجدت فى المعرض الروسى بكانتون .. وكان المعرض قد أغلق أبوابه ، ولم يبق فيه الا القسم الفنى .. وجدت فى هذا القسم ، حول كل لوحة رساما يحاول أن ينقل صورة طبق الأصل ، للوحة التى أمامه ، وقد بدا عليه الجد الصارم ، الذى يشعر الناظر اليه بقدآسة الفن فى نفسه

* * *

أما الأوبرا الصينية ، فهى غريبة قليلا على أذواقنا .

فأوبرا بكين مثلا ، لا تعترف بالمناظر .. وأنها تعتمد على الرمز ، فاذا

كان الممثل يمسك عصا ، كان ذلك رمزا لأنه يركب حصـــانا ٠٠٠ وترى المسرح خاليا الا من بضعة كراسى ممدودة ، والأغرب أن جميـع الـذين يمثلون فى أوبرا بكين رجال ، بصرف النظر عن الـدور الذى يمثـلونه ، حتى ولو كان دور امرأة ٠

ومن هنا كانت شهرة ممثل الأوبرا الذائع الصيت ، ومعبود الجماهير فى الصــين « مى لان فون »

انه مغني وممثــل ، تجاوز الستين ، وهو يمثل حتى الآن دور فتاة فى الثامنة عشرة ٠٠

والذى لا شـــك فيه أن تمثيله للحركات النســوية ، أبرع كثيرا من حركات الفتيات المدللات المتفننات أنفسهن ٠٠ وقد وجدت فى شنغهاى فتاة تمثله ، وتمثــل طريقته فى الأداء ، وبرغم أنها فتاة ، غير أن حركات « مى لان فون »النسوية، كانت أبرع ٠٠ بكثير !

« ومى لان فون » معبود فعلا ٠٠ من الصـــعب جدا أن تحجز مكانا فى الأوبرا ، عندما يمثل ٠٠ فان حضرته ، فسترى جنون الأعجاب به فى عيون الناس ، حتى اذا ما انتهى التمثيل ، جروا الى المسرح مصـــفقين مهللين ، ويرتفع الستار ثم ينزل ٠٠٠ ثم يرتفع ثم ينزل ٠٠ والناس مجنونـة به ، لا تريد أن تتركه !

ولعله من تحصيل الحاصل أن أقول للناس أنه عضو فى المجلس الوطنى ، ونظرة الناس اليه عالية جدا ، نظرا لمواقفــه الوطنيــة التى وقفهــا من الاستعمار اليابانى ، ومن حكومة تشانج كاى شـيك ٠٠٠

على أنه ليس شيوعيا ، وليس عضوا فى الحزب الشيوعى الصينى ٠

وعلى النقيض تماما من أوبرا بكين ، تجد أوبرا شنغهاى ٠٠٠ الجميـــــع نساء ، ولو كانت الادوار التى يؤدونها أدوار رجال ٠

وقد حضرنا « أوبرا » تسمى « الفرقة الغربية » وشاهدنا هذا اللـــون من الفن ٠٠٠ وأحسسنا اعجاب الناس به واقبالهم عليــه ، وان كنــا قد استغربناه ٠

أما الرقص هناك ٠٠ الرقص الاستعراضى ، فشىء رائع ٠

وليس مرجع روعته ، مافيه من عنـــاصر الأثارة ... ولا مافيـــه من تعبيرات لاذعة صارخة مكشوفة ...

ولكن الروعة فيه ، فى « الحشمة » التى يتميز بها ، والتعبير الرقيق عن طبيعة الصين ... حليب البقر ... جمع الشاى ... جمع الفاكهة ... الى آخر هذه الألوان من العرض البسـيط ، الجميل ، الدقيق ، الصادق .

أما الدراما الحديثـة فى الصـين ، فعندها أقف .. لأحنى لهـا رأسى .

أما السينما فى الصين ، فما زالت صناعة محدودة الانتاج ، والأفـلام التى شاهدناها تتجه جميعا اتجاها اشتراكيا .

* * *

وفى الصــــين اتحاد للـكتاب ، ينظم شـئونهم ، ويرعى مصالحهم ، ويدبر لهم وسائل النشر ، سواء فى الصحف أو فى الكتب .

ومن النشرات الدورية الثقافية : الأدب الشعبى والفن الشعبى والفنون فى جيش التحرير والموسيقى والدراما ومجلة خاصة بالدراسات النظرية فى السياسة والاقتصاد وهى واسعة الانتشار ، والبناء الجديد وهى عمليـة أكاديمية .. الى غـير ذلك من نشرات دورية .

وكما أن للكتاب اتحادا ، فان للفنانـين فى أى نوع اتحادا ، وهـــذه الاتحادات منظمات قوية ، تشارك الدولة فى تحديد سياســة التوجيه ، كما ترعى مصالح اعضائها ، وتوجه نشاطهم الفكرى الى خدمة الطبقات العـــاملة ..

* * *

على أنى لا أحب أن أنتهى من هـذا الـكتاب ، قبل أن اسجل شيئا عن الرجل ، الذى يهتز لذكره الصينيون جميعا ..

« لوشين » الكاتب الذى هزأ بجميع القوى ، فأخذ يتهكم منها جميعا .. فى فكاهة ألذع من السباب !

الكاتب الذى أيقظ صرير قلمه النيام والمخدرين ، فهبوا يتبينون الطريق .

الكاتب الذى دق الدقة الأولى فى ناقوس الثورة ، فاشتعلت بعد ذلك فى كل مكان .. ولكنه مات قبل أن يدرك انتصارها .

نداء لوشين ايقظ النيام

مات مسلولا .. أكل المرض صدره ، ولكنه لم يأكل همته .. فظـل يكتب حتى آخر يوم فى حياته ..

قالوا له : عالج نفســك ..

قال : أعالج نفسى .. فى شعب مريض !!

قالوا : لتعيش من أجل هذا الشعب ..

قال : لقد عشت من أجله ، وأوثر أن أموت كما يموت ..

ومات بالسـل ، فكان موته صيحة مدوية ، عجـزت حكومة تشانج كاى شــيك عن أن تحول بينها وبـين التردد فى أنحاء الصـين .

ترددت الصـيحة ، وتجمعت الجمـوع ، وكانت جنازة « لوشـين » مظاهرة وطنية صاخبة ، لا جنازة رهيبة دامعة .

وصاح الناس : لوشـين لم يمت .. لوشـين حى بيننا .. لوشـين حى فينـا .. لوشـين ، أيقظنا ولن ننام بعد ذلك ، حتى ننال حقوقنا .

واهتـز حكم « تشانج كاى شيك » ، وكاد يغـرق المظاهرة ، ولـكن البريق الثائر فى عيون الجموع ، كان أحد من سونكى جنود تشانج كاى شيك وتحولت شنفهاى الى زئير .. وهى تودع الأسد الذى مات ..

خاتمة الكتاب

وبعـــد !! •

هل لابد أن تكون للكتاب خاتمـة ؟!

لقد آثرت أن يبدأ بغير مقـــدمات ••• وانى لأوثر الآن أن ينتهى ••• دون خاتمة •

القاهـرة فى ٢٠ فبراير ١٩٥٦

عبد المنعم الصاوى

كتب للجميع

كتب قيمة بقروش زهيدة

تصدر عن دار التحرير للطبع والنشر

مدير المجلة : السيد ابراهيم

رئيس التحرير : دكتور فائق الجوهري

طريقة الدفع :

مصر والسودان : نقدا او بموجب اذونات او حوالات بريد اوشيكات

سـوريا	بالطائرات	١٢٠ قرشا سوريا
لبنـان	«	١٢٠ قرشا لبنانيا
العـراق	«	١٢٠ فلسـا
المملكة الأردنية الهاشمية	«	١٢٠ فلسـا
المملكة العربية السـعودية	«	٢٥ قرشاسعوديا

الاشتراكات :

القطر المصرى والسودان عن سنة ، ١٢ عددا ، ١٠٠ قرشـا

سـوريا ولبنان بالطائرات ١١٠٠ قرش سـورى او لبنـانى

الأردن والعراق بالطائرات .... ١٢٠٠ فلس

ثمن العدد :

مصر والسـودان .... ١٠٠ مليمـا

خارج القطر المصرى : حوالة مصرفية على احـد بنوك القاهرة

المكاتبات بعنوان ٥ شارع نجيب الريحانى ت ٧٩٦٤٧

الإعلانـات يتفق عليهـا مع شركة الاعلانات المصرية . ش . م . م . ٥ شـارع جـلال بالقـاهرة

دار الجمهورية للتوزيع

٥ شارع نجيب الريحاني - القاهرة

Bibliotheca Alexandrina
06533354

دار الجمهورية للطباعة